"حجر بن أم قطام: قراءة تاريخية في ديوان عبيد بن الأبرص"

د. عرسان حسين الراميني *

تاريخ تقديم البحث: ٢٠١٠/٢/٢٤ تاريخ القبول: ٢٠١٠/١٠/٢٦

ملخص

"حجر بن أم قطام" اسم يرد مرارا في الشعر الجاهلي، وعلى الأخص في شعر عبيد بن الأبرص الأسدي؛ وقد اعتقد القدماء، وتابعهم في ذلك المحدثون بلا مناقشة، بأن حجرا هذا هو نفسه حجر بن الحارث بن عمرو الكندي، والد الشاعر امرئ القيس، وأحد أفراد عائلة آكل المرار المالكة، والمتوفى في وقت مبكر من القرن السادس للميلاد. إن المقال الحالي يعيد النظر في هذا الاعتقاد وينتهي، بعد مناقشة مستفيضة مبنية على فحص دقيق للمصادر العربية وغير العربية على السواء، إلى، أولا، أن حجر بن أم قطام نشط في وقت متأخر من القرن السادس للميلاد، أي بعد جيلين أو ثلاثة أجيال مما يعتقد عموما، وثانيا، أنه لم يكن أحد أفراد عائلة آكل المرار، وإنما كان ينتمي، على الأرجح، إلى عائلة كندية متنفذة كانت تستوطن في دومة الجندل وتدين بالولاء للبيزنطيين؛ وإلا، كما يخلص المقال، فلا بد أنه كان أحد ملوك الغساسنة المتأخرين. وهذه النتيجة تفسر المبالغة الواضحة في كل التقديرات الخاصة بعمر عبيد بن الأبرص. فكل الروايات ذات العلاقة، كما يوضح المقال، توجهها تفسيرات مغلوطة للإشارات التاريخية الواردة في شعره.

الكلمات الدالة: شعر جاهلي؛ تاريخ العرب قبل الإسلام؛ عبيد بن الأبرص.

Abstract

Hujr b. Umm Qatam

A Historical Reading in the Poetry of Abid b. al-Abras

This article questions the common belief that Hujr b. Um Qatam, mentioned repeatedly in pre-Islamic poems, mainly in the poems of the Asadi 'Abid b. al-Abras, was himself the early sixth century king Hujr b. al-Harith b. 'Amr of the Kindite family of Akil al-Murar. After a thorough discussion based on Arabic and non-Arabic sources, the article concludes that (1) Hujr b. Um Qatam was active late in the sixth century A.D., i.e. two or three generations later than generally believed and (2) he was not possibly a member of the Kindite family of Akil al-Murar. Rather, he most probably belonged to a branch of Kinda then residing in Dumat al-Jandal and paying homage to Byzantium; otherwise, he must have been one of the late Ghassanid kings. These findings, moreover, highlight the background of the plainly exaggerated estimates of how long 'Abid lived. All the related accounts stem, as the article shows, from misinterpreting historical references in his poetry.

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك.

مقدمة:

في ديوان عبيد بن الأبرص[1]، يرد اسم "حجر" أربع مرات في أربع قصائد مختلفة، هـي الثانية، والرابعة، والسابعة، والسابعة عشرة. وفي حين يرد الاسم في هذه القصيدة الأخيرة غيـر منسوب، فإنه في القصائد الثلاث الأخرى يرد منسوبا إلى "ابن أم قطام". وفي جميع هذه المواطن، يتغنى عبيد بمقتل "حجر" في معركة وقعت بينه وبين بني أسد. وفي القصيدتين الرابعة والـسابعة، بصفة خاصة، يخاطب عبيد ابنا لحجر هذا، مدلا عليه بقتل أبيه، ومـستهزئا بتهديـده بنـي أسـد بالانتقام، وطالبا منه أن يبكي أباه بدلا من البكاء على رجال من بني أسد يزعم أنه قتلهم بأبيه. فهو يقول في القصيدة السابعة:

يا ذا المخوفُنا بقتـ ـل أبيه إذلالا وحينـا
أزعمتَ أنك قد قتلتَ سراتَنا كذبا ومينـا
هلا على حجرِ ابنِ أم مِ قَطام تبكي لا علينا

ويقول في القصيدة الرابعة:

يا ذا المخوفُنا بمقتل شيخـه حجرٍ تمني صاحبِ الأحـلام
لا تَبكنا سفَها ولا ساداتنـ ـا واجعلْ بكاءك لابنِ أم قطـام
حجرٍ غداةَ تعاورتْه رماحنـا بالقاع بين صفاصف وإكـام

أما في القصيدتين الأخريين فيشير عبيد إشارة سريعة إلى قتل حجر مفتخرا بهذه الحادثة، إذ يقـول في القصيدة الثانية:

سائلْ بنا حجر بن أم قطامٍ إذ ظلّتْ به السمر النواهلُ تلعب

ويقول في القصيدة السابعة عشرة، من غير أن ينسب حجرا إلى "أم قطام":

ويوم الربابِ قد قتلنا همامها وحجراً قتلناه وعمرا كذلكا

وإذا انتقلنا إلى الشعر الذي يضيفه ليال إلى قصائد الديوان من منتخبات ابن الـشجري مـن شـعر عبيد، نجد حجرا مذكورا في موطن واحد في سياق حربي مشابه:

سائلْ بنا حجراً وأجنـاده يوم تولّى جمعه الجـافل
يوم أتى سعداً على مـأقط وجاولتْ من خلفه كاهل
فأوردوا سربا له ذُبـ ـلا كأنهن اللهب الشـاعل

(1) Lyall, C.J., *The Diwans of ´Abid Ibn al-Abras, of Asad, and ´Amir Ibn at-Tufail, of ´Amir Ibn Sa´sa´ah*, Brill: Leyden, 1913 (= Lyall).

وإلى جانب المواطن الخمسة السابقة، التي يرد فيها اسم حجر في ديوان عبيد بن الأبرص، هناك موطنان آخران يردان في أشعار يرتاب ليال في صحتها، ويضيفها إلى الديوان تحت عنوان: "شذرات شعرية منسوبة إلى عبيد في مصادر متنوعة". ففي الموطن الأول يخاطب عبيد رجلا يهمه شأن حجر، فيقول:

أتوعد أسرتي وتَركْتَ حجراً | يسيغُ سواد عينيه التراب
أبوا دين الملوك فهم لَقاح | إذا نُدبوا إلى حربٍ أجابوا
فلو أدركْت علباء بن قيسٍ | قَنعتَ من الغنيمة بالإياب

وفي الموطن الثاني يظهر اسم هذا الرجل ونسبه مماثلا لاسم، ونسب، الشاعر امرئ القيس بن حجر الكندي:

سقَينا امرأ القيسِ بنَ حجرٍ بنِ حارثٍ | كؤوس الشجا حتى تَعود بالقَهر
وألهاه شرب ناعم وقَراقر | وأعياه ثأر كان يطلب في حجر
وذاك لَعمري كان أسهلَ مشْرعا | عليه من البيضِ الصوارمِ والسمر

ومن غير الواضح ما إذا كان هذا الشعر المشكوك في صحته مرجعا أساسيا لشراح الشعر في تحديد هوية "حجر بن أم قطام"، لكن المهم في الأمر هو أن هؤلاء الشراح جميعا يدعون أن حجرا هذا هو ابن الملك ذائع الصيت الحارث بن عمرو بن حجر سليل عائلة آكل المرار الكندية، وأن ابنه الذي يخاطبه عبيد بن الأبرص هو الشاعر امرؤ القيس بن حجر الكندي. وهذه الدعوى نجدها أيضا في التعليقات على الأشعار ذات الصلة عند اقتباسها في عشرات المصادر الأخرى، تاريخية وأدبية ولغوية وبلدانية، فضلا عن مصادر الأنساب والتراجم، وذلك في سياق ذكر، أو تسجيل، الأحداث التي أرهصت، من وجهة نظر الأخباريين، لمقتل حجر بن الحارث بن عمرو الكندي. وفي بعض روايات هذه الأحداث، وبخاصة روايتي ابن الكلبي وأبي عبيدة[١]، تظهر لعبيد بن الأبرص صلة مباشرة بمقتل حجر بن الحارث، وتروى له فيها بعض أشعاره تلك[٢] وغيرها[٣].

إذن، هناك اتجاه ثابت في المصادر نحو تعريف حجر، أو حجر بن أم قطام، في ديوان عبيد على أنه حجر بن عمرو بن الحارث الكندي، والد الشاعر امرئ القيس؛ وما دام كل من امرئ

---

(١) الإصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين (٣٥٦هـ/٩٦٦م)، **الأغاني**، القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧٤، ج٩ ص ٨٢-٣، ١٠٣- ١٠٥.

(2) Lyall, no. 7.

(٣) Lyall, no ٢٩. ينقل أبو الفرج أيضا روايات أبي عمرو الشيباني، والهيثم بن عدي، وعلي بن المغيرة الأثرم، ويعقوب بن السكيت، وابن قتيبة. وتتفق هذه الروايات في الخط العريض، وهو أن حجر بن الحارث بن عمرو الكندي مات مقتولا، وأن قاتله رجل من بني أسد، لكنها تختلف في كل التفاصيل تقريبا.

القيس وأبيه قد توفي في وقت مبكر من القرن السادس للميلاد، فإن ادعاء صلة عبيد بهما يعني أنه نشط في تلك الفترة من الزمن. ولم يثر ليال (Lyall)، وهو أول من نشر ديوان عبيد بن الأبرص، أدنى شك حول ما تدعيه المصادر بهذا الخصوص، سواء في الدراسة التي تضمنتها مقدمة نشرته للديوان، أو قبل ذلك بسنة واحدة (١٩١٢)، في بحثه المنشور في "Journal of the Royal Asiatic Society" بعنوان "Ancient Arabi poetry as a source of historical information" والملاحظات التي سجلها كرنكو (Krenkow)[1] في المجلة نفسها على نشرة ليال للديوان جاءت خلوا من أية تعليقات على ما يقوله الأخباريون عن صلات عبيد السياسية. وكما قبل ليال مقولة الأخباريين حول هوية حجر بن أم قطام من غير مناقشة، قبلها أيضا عشرات الدارسين ممن اهتموا بعبيد وشعره، سواء في أوساط المستشرقين أو العرب، وفي مقدمتهم أولئك الذين تصدوا لتحقيق ديوانه بعد ليال مثل يوسف فرحات[٢] وأشرف عذرة[٣]، وكذلك من تصدوا لدراسة شعره، مثل مفيد قميحة[٤]، وعاطف درابسة[٥].

إزاء ذلك، تحاول الدراسة الحالية إعادة النظر في المقولة الخاصة بهوية حجر بن أم قطام والمرتكزة على شعر عبيد بن الأبرص. فهي تنفي، عبر مناقشة قائمة عموما على الشعر الجاهلي، وأحيانا على مصادر إغريقية وسريانية، أن يكون حجر ملكا من آل آكل المرار، فضلا عن أن يكون والد الشاعر امرئ القيس الكندي؛ وترسي، في المقابل، أساسا مكينا للقول بأن حجر بن أم قطام ينتمي إلى عائلة أخرى من كندة كانت تتخذ من دومة الجندل مقرا لها، وبأنه نشط في أواخر القرن السادس للميلاد.

عصر عبيد بن الأبرص

إن دعوى معاصرة عبيد بن الأبرص لحجر بن الحارث وابنه امرئ القيس، أي دعوى كونه من رجال النصف الأول من القرن السادس للميلاد، لا تظهر في شروح ديوانه فقط، بل في قصة وفاته أيضا. فابن الكلبي يخبرنا أن حياة عبيد انتهت على يد ملك الحيرة المنذر بن ماء

(1) Krenkow, F., "Notes on the editions of the Arabic poets 'Abid ibn al-Abras, 'Amir ibn at Tufail, and 'Amr ibn Qami'a published by Sir Charles J. Lyall," *Journal of the Royal Asiatic Society*, 1922, pp. 43-48.

(٢) يوسف فرحات، ديوان السفيرين: النابغة الذبياني وعبيد بن الأبرص، بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢.

(٣) أشرف عذرة، **ديوان عبيد بن الأبرص**، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٤.

(٤) مفيد قميحة، **عبيد بن الأبرص الأسدي: أخباره وأشعاره**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.

(٥) عاطف درابسة، **شعر عبيد بن الأبرص: دراسة نصية تحليلية**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٩٩٤. وانظر أيضا: رفعت عابد، **عبيد بن الأبرص الأسدي: حياته وشعره**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩؛ محمد سلامة، **الموت والحياة بين طرفة بن العبد وعبيد بن الأبرص: دراسة نصية**. رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٣.

السماء (٥٠٦- ٥٥٤م). وعلى الرغم من وجود روايات أخرى تستبدل بالمنذر بن مـاء الـسماء ملوكا حكموا بعده، ومنهم ملك الحيرة النعمان بن المنذر (٥٨٠- ٦٠٢م)، إلا أن رواية ابن الكلبي هي السائدة في المصادر، وهي المقبولة لدى ليال (Lyall) وجبريلي (Gabrieli)[(١)] وكـذلك فـي أوساط الدارسين العرب[(٢)]. ولعل محمد علي أوضح هؤلاء الدارسين في التعبير عن ذلـك، حـين نقل خبر الحوار بين عبيد والمنذر بن ماء السماء، ثم قال "وإني أرجح أن القصة والحوار كليهمـا موضوع وإن كنت مسلّما بأن المنذر قد قتل عبيدا أو على الأقل أمر بقتله، ولكن أسباب القتل غيـر واضحة".[(٣)]

لكن مع كل هذا الذي يقال حول صلة عبيد بن الأبرص بكل من حجر بن الحارث الكنـدي والمنذر بن ماء السماء اللخمي، فإن الأدلة تشير في مجموعها إلى أنه لم يعاصر أيا منهما، بل تأخر عنهما جيلين أو ثلاثة أجيال، ونشط في أواخر القرن السادس للميلاد والعقد الأول من القرن السابع. وقبل إجراء أي بحث في حياة عبيد بن الأبرص، وفي شعره كذلك، لتحديد عصره الحقيقي، يمكـن تقديم دليل من الفترة المبكرة في الإسلام، يعد، فيما لو تأكد، حاسما في إثبات انتماء الـشاعر إلـى جيل ما قبل البعثة النبوية قصرا؛ أي دون أدنى احتمال لأن يكون عاصر حجر بن الحارث الكندي أو المنذر بن ماء السماء، أو حتى أبناءهما. فابن سعد[(٤)] يترجم لرجل من نسل عبيد يسميه "بدر بن دثار بن ربيعة بن عبيد بن الأبرص"، ويصنفه في الطبقة الثالثة من التابعين. ورجال هذه الطبقـة توفوا في العقدين الثاني والثالث من القرن الثاني للهجرة[(٥)]؛ وهذا يعني أن أجدادهم الأقربين كـانوا معاصرين للنبي (صلى ا عليه وسلم)، وبالتالي فإن آباء أجدادهم ينتمون إلى جيل ما قبل البعثـة، أي أن عبيد بن الأبرص، بناء على هذه الحسبة، ينتمي إلى جيل ما قبل البعثة. ويؤكد ذلك أن من نعرفهم من أولئك الأجداد الأقربين قد عاصروا النبي وعاشوا بعده ردحا من الزمن. ومن هـؤلاء الرجال، على سبيل المثال، خليفة بن الحصين بن قيس بن عاصم المنقري[(٦)]، وسعيد بن بردة بـن

(1) *The Encyclopaedia of Islam*, New ed. 1960-, Leiden and London (= *EI*), v.s. Abid b. al-Abras

(٢) مثلا: كرم البستاني، **شرح ديوان عبيد بن الأبرص**، بيروت: دار صادر، ١٩٦٤، ص ١٣؛ محمد عثمان علي، **شعراء بني أسد إلـى نهاية القرن الثالث الهجري**، بيروت: دار الأوزاعي، ١٩٨٦، ص ٣٥؛ مصطفى الغلاييني، **رجال المعلقات العشر**، بيروت: المكتبـة العصرية، ١٩٩٠، ص ٣٠١.

(٣) محمد علي، ص ٣٥.

(٤) ابن سعد، أبو عبد ا محمد (٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، **الطبقات الكبرى**، بيروت: دار صادر، ١٩٦٠، ج٦ ص٣٣٠.

(٥) يروي عنه سماك بن حرب، المتوفى سنة ١٢٧هج (انظر: ابن ماكولا، علي بن هبة ا (٤٨٦هـ/١٠٩٣م)، **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، بيروت: دار المكتبة العلمية، ١٩٩٠.

(٦) ابن سعد ج٦ ص٣١٩.

أبي موسى الأشعري[١]، وسعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموي[٢]. فقيس بن عاصم المنقري قدم على النبي في وفد بني تميم لمبايعته على الإسلام، وأبو موسى الأشعري ولي البصرة لعمر بن الخطاب، رضي ا عنه، وكان أحد الحكمين في الحرب بين علي ومعاوية، رضـي ا عنهمـا. وسعيد بن العاص ولاه عثمان بن عفان الكوفة في النصف الأخير من خلافته[٣]. ومـن الجـدير بالملاحظة أن بدر بن دثار مذكور أيضا في كتاب "أنساب الأشراف" للبلاذري[٤]، وكتاب "الإكمال" لابن ماكولا[٥]، وأن سلسلة نسبه إلى عبيد بن الأبرص واحدة فيهما ومتفقة مع سلسلة نـسبه كمـا يحررها ابن سعد[٦]. بعبارة أخرى، هذا التوافق إنما يدل على عدم سقوط حلقات في سلسلة نسبه، وبالتالي، على أن عبيد بن الأبرص ينتمي إلى الجيل السابق على البعثـة فعـلا. ومـن الجـدير بالملاحظة في هذا السياق أن الدينوري[٧] ينقل رواية نادرة عن مقتل حجر بن عمرو بن الحـارث الكندي، يرد فيها سيد من بني أسد اسمه "سويد بن عمرو" بوصفه جدا لعبيد بن الأبرص ومـشتركا في نشاط مترتب على مقتل حجر؛ لكن نسب عبيد، كما نعرفه، لا يتضمن اسم "سـويد" ولا اسـم "عمرو".

ومع ذلك، قد يقال إن البلاذري وابن ماكولا إنما ينقلان عن ابن سعد، وإن هذا الأخير ربما سقطت منه، أو من مصدره، بعض حلقات سلسلة نسب بدر بن دثار. قد يكون هذا محـتملا مـن حيث القوة، لكنه ليس كذلك من حيث الفعل. فلدى، أولا، مراجعة سجل أبرز الرجال المـذكورين في سيرة عبيد بن الأبرص، وثانيا، فحص ما يمكن فحصه من أحداث ذكرت في شعره، يتبـين أن عصر الشاعر يجب أن يكون حيث تشعر به سلسلة النسب تلك.

أولا. رجال في سيرة عبيد

هناك شخصيتان لا تقلان دورانا في سيرة عبيد بن الأبرص عن شخصية كل من حجر بن الحارث الكندي وابنه امرئ القيس، وهما عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة-- رجلان من بني أسد. ففـي

(١) السابق، ص٣٢٤.

(٢) السابق، ص٣٢٧.

(٣) انظر: تراجم الرجال الثلاثة في خير الدين الزركلي، **الأعلام**، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤.

(٤) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى (٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **أنساب الأشراف**، المخطوط (جزءان)، رقم الإيداع ٥٩٧، ٥٩٨، مكتبة السليمانية، إسطنبول (البلاذري، مخطوط) ج٢ ورقة٧٤١.

(٥) ج١، ص٢١٧.

(٦) فقط، ابن ماكولا ضبط اسمه فذكر أنه "بدن" بدلا من "بدر".

(٧) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢هـ/٨٩٥م)، **الأخبار الطوال**، تحقيق عصام حاج علي، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١، ص٩٩.

رواية ابن الكلبي عن مقتل حجر بن الحارث[١]، وهي أكثر الروايات شيوعا، يظهر عمرو بن مسعود بوصفه واحدا من سادة بني أسد الذين أسرهم حجر في غزوة شنها ضدهم إثر امتناعهم عن دفع ما كانوا يدفعونه له من إتاوة كما تقول الرواية. وحسب هذه الرواية أيضا، أمر حجر بإطلاق سراح عمرو بن مسعود وغيره من أسارى بني أسد، وفيهم عبيد بن الأبرص، بعد أن بعث إليه هذا الأخير قصيدة استرحام، فوفى عمرو لحجر حين قتلته بنو أسد، وذلك بأن "ضم عياله وقال أنا جار لهم"[٢].

ويظهر عمرو بن مسعود مرة ثانية هو وخالد بن نضلة الأسدي في رواية شائعة أخرى لابن الكلبي[٣]، هذه المرة عن مقتل عبيد بن الأبرص نفسه، وهي الرواية التي تفسر سبب بناء الغريين المقامين بظاهر الكوفة. إذ تفيد هذه الرواية أن المنذر بن ماء السماء قتل في ساعة سكر رجلين من بني أسد هما عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة، فأمر ببناء طربالين على قبريهما تشريفا لهما. ويخبرنا ابن الكلبي في الرواية نفسها أن المنذر قسم دهره بعد ذلك إلى يومين: يوم نعيم ويوم بؤس، وأن من كان يأتيه في يوم بؤسه، كان يقتله ويغري الطربالين بدمه، فسميا "الغريين"، وأن عبيد بن الأبرص وفد عليه في يوم بؤسه، ففعل به مثل ذلك. ويعود انتشار هذه القصة انتشارا واسعا في المصادر، كما يبدو، إلى أنها ترتبط بمثل من الأمثال ينسب أحيانا إلى عبيد بن الأبرص، وهو: "حال الجريض دون القريض"[٤].

وفي رواية أخرى للقصة نفسها[٥]، يحل ملك الحيرة عمرو بن المنذر بن ماء السماء (ت ٥٦٩م) محل أبيه، وفي رواية ثالثة[٦]، يحل النعمان بن المنذر بن المنذر بن ماء السماء (ت ٦٠٢م) محل جده، وفي رواية رابعة[٧]، يحل ملك غساني يدعى "أبا كرب" محل الملوك اللخميين[٨]. لكن

---

(١) الإصفهاني، ج٩، ص٨٢- ٣.

(٢) البلاذري، مخطوط ج٢ ورقة٧٤١.

(٣) الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبد ا (٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، **معجم البلدان**، بيروت: دار صادر، ١٩٥٧، "الغريان".

(٤) العسكري، أبو هلال حسن بن عبد ا (بعد ٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، كتاب **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش. بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨، ج١ ص٣٠٣. قارن الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري (٥١٨هـ/١١٢٤م)، **مجمع الأمثال**، ط ٢. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧، ج١ ص٣٤١؛ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (٥٣٨هـ/١١٤٣م)، **المستقصى في أمثال العرب**، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٧٧، ج٢ ص٥٥.

(٥) البلاذري مخطوط، ج٢ ورقة٧٣٠.

(٦) ابن هشام، عبد الملك بن هشام الحميري (٢١٣هـ/٨٢٨م)، **السيرة النبوية**، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض وفتحي حجازي، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨، ج٢ ص١٦٨.

(٧) الميمني، عبد العزيز، **ذيل اللآلئ** (شرح لذيل أمالي القالي)، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٥، ص٩١.

(٨) أحيانا تختلط أسماء هؤلاء الملوك في الرواية الواحدة (انظر الإصفهاني ج٢٢ ص٨٦- ٩٠).

ظهور عبيد بن الأبرص وعمرو بن مسعود في الأخبار الخاصة بمقتل حجر بـن الحـارث جعـل الدارسين يميلون إلى الاعتقاد بأن الذي قتلهما هو المنذر بن ماء السماء، لأنه معاصر لحجر.

على أن معلوماتنا عن عمرو بن مسعود (بن كلدة بن عبد بن مرارة بن سواءة بن سعد بن مالك بن ثعلبة) تتعارض مع ما يتضمنه ابن الكلبي من أنه عاش ومات في زمن المنذر بـن مـاء السماء، وتدل، في المقابل، على أنه ينتمي إلى جيل ما قبل البعثة. فسلسلة نـسبه، أولا وقبـل أي دليل آخر، توازي سلاسل نسب آخرين من بني أسد عاشوا عشية الإسلام، مـنهم أبـو المظفـار الأسدي (مالك بن عوف بن معاوية بن كسر بن ناشرة بن سواءة بن سعد بن مالك بـن ثعلبـة)[1]؛ وأبو المظفار هذا مذكور في شعر النابغة الذبياني[2] في إحدى وقائع الحرب التي اندلعت في زمـن النعمان بن المنذر بين بني أسد وغطفان في جانب وبني عامر وحلفائهم في الجانب الآخر.
وبالإضافة إلى دلالة سلسلة نسبه، تروي المصادر شعرا في رثائه ينسب أحيانا إلى الشاعر الأسدي سبرة بن عمرو، كما خرجه الميمني[3]، وأوله:

ألا بكر الناعي بخيرِ بني أسد   بعمرو بنِ مسعود وبالسيد الصمد

فمن كان يعيا بالجوابِ فإنّـه   أبو معقلٍ لا حجر عنه ولا صدد

ولسبرة بن عمرو هذا هجاء في الشاعر التميمي ضمرة بن ضمرة النهشلي[4]، الذي تـدل أخبـاره على أنه كان نشطا عشية الإسلام، ومنها، أولا، أن المصادر تروي له شعرا في هجاء الأسود بـن المنذر أخي ملك الحيرة النعمان بن المنذر[5]، وثانيا، أن أحفاده عاشوا في زمن علي بن أبي طالب وقاتلوا في صفين[6]، وثالثا، أن رجال القبائل الذين يظهرون في سجله ينتمون جميعا إلى جيل مـا قبل البعثة.
ولعل أبرز دليل على عصر عمرو بن مسعود تمثله قصيدة ذائعة الصيت قالها في رثائه أوس بـن حجر التميمي[7]، ومطلعها:

يا عين جودي على عمرو بنِ مسعود   أهل العفاف وأهل الحزمِ والجـود

أودى ربيع الصعاليك الألى انتَجعوا   وكل من قَوقَها من صالـحِ مـود

---

(1) البلاذري، مخطوط، ج2 ورقة745.

(2) زياد بن معاوية (نحو ٦١٠م)، **الديوان**، ط2، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥، ق٢٠: ١٠.

(3) ذيل، ص٩١.

(4) البغدادي، عبد القادر بن عمر (١٠٩٣هـ/١٦٨٢م)، **خزانة الأدب واب لباب لسان العرب**، تحقيق إميل يعقوب ومحمد طريفي، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨، ج٩ ص٥٠٢- ١٠.

(5) الإصفهاني ١١: ١١٣.

(6) المنقري، نصر بن مزاحم (٢١٢هـ/٨٢٧م)، **وقعة صفين**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٨١، ص٢٦٤.

(7) أوس بن حجر التميمي (بعد ٦٠٠م)، **الديوان**، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت: دار صادر، ١٩٧٩، ق١١.

المطعم الجار والأضيافَ إن نَزلـوا شَحم السديف من الكُوم المقاحيد

ولأوس بن حجر أيضا قصائد في رثاء عم عمرو بن مسعود فضالة بن كلدة[١]؛ وقد شهد هذا الأخير اندلاع حرب داحس في أواخر القرن السادس للميلاد، وله ذكر فيها. ولأوس كذلك خبر مع حليمة بنت فضالة[٢]؛ ومن المعروف أن أوسا عاش قبيل ظهور الإسلام وأدرك البعثة النبوية؛ إذ له أشعار تسجل انقلاب علاقة تميم بالحيرة في آخر حكم النعمان بن المنذر[٣] وأخرى تؤكد معاصرته لأبي براء عامر بن مالك، الذي رأس بني عامر في حرب الفجار مع قريش، وعاش حتى سنة ٦٢٤/ ٦٢٥م، كما يؤكد كاسكل (Caskel)[٤]، ولقي النبي صلى ا عليه وسلم[٥].

أما السيد الأسدي الآخر البارز في سيرة عبيد بن الأبرص، أي خالد بن نضلة، فحالته لا تقل وضوحا. فشراح الشعر يرون أن سبرة بن عمرو إنما يتحدث في بيته المقتبس أعلاه عن رجالين من بني أسد، وأن قوله "السيد الصمد" إشارة إلى خالد بن نضلة[٦]. وإلى جانب أن لخالد هذا خبرا مع أخ للشاعر المخضرم النابغة الجعدي[٧]، فإن له أخوة وأبناء وأحفادا مشاهير، تؤكد سجلاتهم ما ينطوي عليه هذا الخبر من أنه نشط عشية الإسلام. فابن حجر[٨] يترجم لأخيه عرفطة بن نضلة بين الصحابة، ويذكر أنه قدم على النبي مع وفد بني أسد، وأنشد في حضرته شعرا قال فيه:

يقولُ أبو مكْعت صادقاً عليك السلام أبا القاسم

سلام الإلـه وريحـانُـه وروح المصلين والصائم

وينسب هذا الشعر، في بعض الروايات، إلى ابن عم خالد بن نضلة لحا، الحارث بن عمرو بن الأشتر[٩]. ونفهم من ابن حجر أيضا[١٠] أن ابن عرفطة، واسمه "حسيل"، كان مع أبيه في وفادته تلك، وأن النبي حين عرف اسمه غيره إلى "حسين"، فأصبح يعرف بـ "حسين بن عرفطة".

---

(١) أوس بن حجر، ق: ٤، ٦، ٤٠.

(٢) الإصفهاني ج١١ ص٧٣.

(٣) عرسان الراميني، "الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم،" دراسات ٣٦: ٢ (٢٠٠٩): ٢٩٨- ٣١٨، ص ٣٠٩.

(4) *EI*., v.s. 'Amir b. al-Tufayl

(٥) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، اعتناء حسان بن عبد المنان، عمان: بيت الأفكار الدولية، ٢٠٠٢(= ابن حجر)، ترجمة ٤٦٢١.

(٦) انظر، مثلا، البغدادي ج١١ ص٢٨٨.

(٧) الإصفهاني ج٥ ص ٢٥- ٢٦ (اسم أخيه وحوح بن قيس).

(٨) ابن حجر، ترجمة ٦١٧٧.

(٩) ابن ماكولا ج١ ص٨١.

(١٠) ابن حجر، ترجمة ١٩٢٦.

ولخالد بن نضلة ولد اسمه "نضلة"، يذكر وثيمة في كتاب الردة[1] أنه كان نازلا في أخواله بني حنيفة حين ارتدوا مع مسيلمة، فأنكر عليهم فعلتهم "ودعاهم إلى الثبات وحذرهم العاقبة فلم يقبلوا منه فارتحل عنهم، وينشد له وثيمة في ذلك شعراً." وخالد بن نضلة هو الجد الثاني للشاعر الأموي المعروف المرار الفقعسي بن سعيد بن حبيب بن خالد بن نضلة[2]؛ وقد أدرك المرار أول الخلافة العباسية، وله شعر يفتخر فيه بجده خالد بن نضلة، ويتغنى بانتصاراته في حروبه ضد كلاب وبكر بن وائل وعامر بن صعصعة، ومن ذلك قوله[3]:

أنا ابن التّارك البكْري بشراً عليه الطّير تَرقُبه وقُوعا
علاه بضربة بعثت بليلٍ نوائحه وأرخَصت البضوعا
وقاد الخَيلَ عائدةً لكلابٍ ترى لوجيفها رهجاً سريعاً
عجيب لقائلين صه لقومٍ علاهم يفْرع الشّرفَ الرفيعا

وبشر الذي يذكره المرار هنا هو بشر بن عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة؛ واليوم الذي قتل فيه هو يوم "قلاب". وقد قتل فيه معه بعض أبنائه، فرثته ورثتهم زوجته في شعر تتداوله المصادر. ولبشر ابن عظيم الذكر اسمه عبد عمرو، ذكره الأعشى في شعره[4]، ومن المعروف أن الأعشى ينتمي إلى جيل البعثة، وهذا ينبئ أن بشرا إنما يسبقه بجيل واحد.

ويمكن أن يشار في هذا السياق إلى مفضلية للجميح الأسدي[5] يتغنى فيها بانتصار قومه في يوم "ذات علق" على بني عامر برئاسة أبي براء عامر بن مالك الكلابي، ويذكر خالد بن نضلة ويثني على إقدامه وشجاعته في ذلك اليوم:

سائِلْ معـَدا: من الفوارس لا أَوفَوا بجيرانهم ولا غَنموا
يعدو بهم قُرزلٌ ويستمع ال ناس إليهم وتَخْفُقُ اللمم
ركْضاً وقد غادروا ربيعةَ في ال أَثْآرِ لما تَقَارب النسم
في كفه لدنةٌ مثقفَةٌ فيها سنان محرب لحم

(١) السابق، ترجمة ٩٠٣٥ يخطئ الزبيدي (تاج العروس، "نضل")، كما يبدو، في نقل رواية ابن حجر، فينسب نضلة في بني حنيفة.

(٢) المرزباني، أبو عبيد ا محمد بن عمران (٣٨٤هـ/٩٩٤م)، **معجم الشعراء**، تصحيح وتعليق كرنكو، ط٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢، ص ٤٠٨- ٩.

(٣) البصري، صدر الدين علي بن أبي الفرج (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) **الحماسة البصرية**، تحقيق عادل سليمان، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٠، ص١٩.

(٤) الأعشى، ميمون بن قيس (نحو ١٠هـ/٦٣١م)، **الديوان**، تحقيق محمد محمد حسين، ط٧، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣، ق١٩: ٥؛ ٢٧: ١٤.

(٥) الأنباري، أبو محمد القاسم بن محمد (٣٠٤هـ/٩١٦م)، **المفضليات**، تحقيق تشارلز ليال، بيروت: مطبعة الآباء اليسوعية، ١٩٢٠، مفضلية ٧.

لو خافكم خالد بن نَضلَة نــ جنّه سبوح عنانُها خَذِم

جرداء كالصعدة المقامة لا قُر زوى متْنَها ولا حرم

وقد مر أن أبا براء عاش حتى بعد هجرة النبي (ص) إلى المدينة. أما الجميح نفسه فله ابن يسمى "عركز"، كان نشطا في صدر الإسلام كما نفهم من ابن دريد(١). أي إن الجميح، وبالمثل خالد بن نضلة، كانا قد نشطا عشية الإسلام(٢).

يتبين، إذن، من فحص سجلات أبرز الرجال المذكورين في سيرة عبيد بن الأبرص أنهم ينتمون إلى جيل ما قبل البعثة؛ أي إلى أواخر القرن السادس للميلاد وأوائل السابع. وهناك قصة متداولة لابن الأعرابي(٣) تجمع عبيدا مع عدد من الشعراء الجاهليين، وهم النابغة وبشر بن أبي خازم وحاتم الطائي، وينضم إليهم الحطيئة في بعض المصادر، وهي قصة من نسج الخيال، كما يبدو، وغير مؤهلة للنظر فيها؛ لكن إذا كان لها أصل، فهؤلاء الشعراء عاشوا جميعا عشية الإسلام، والحطيئة من بينهم شاعر مخضرم، ولذلك يرفض عزة حسن، محقق ديوان بشر، هذه القصة، من منطلق أن عبيدا، كما يقول(٤)، قتله المنذر بن ما السماء قبل ذلك بزمن طويل.

ثانيا. أحداث في شعر عبيد

ليست سجلات الرجال المذكورين في سيرة عبيد هي وحدها التي تحمل دليلا واضحا على انتمائه إلى جيل ما قبل البعثة، بل أيضا سجلات الأحداث المذكورة في ديوانه. ومع أن المحفوظ من شعره نزر يسير، بالقياس إلى شعر من هم في طبقته من الشعراء الجاهليين، فإن الإشارات التاريخية في شعره تساعد في استجلاء جيله الحقيقي. وهذه الإشارات تتصل بثارات بني أسد وحروبهم، وهي لا تشمل، لسوء الحظ، أسماء سادات بعينهم، لكنها على أية حال، تشمل أسماء أيام لها دلالتها في هذا السياق.

١) يوم شطب. يذكر عبيد يوم شطب في القصيدة الرابعة عشرة من ديوانه؛ وهي قصيدة تتسم ببعض الغموض، من حيث إنه يخاطب فيها رجلا دون أن يذكر اسمه، منتقدا إياه لأنه لم يطلب

(١) ابن دريد، أبو بكر محمد بن حسن الأزدي (٣٢١هـ/ ٩٣٢م)، **الاشتقاق**، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٩، ص٥٥٧.

(٢) يجعل الزركلي وفاة الجميح حول سنة ٥٧١م معتمدا، كما يبدو، أولا على المرزباني (ص ٤٠٣)، الذي يذكر أن الجميح قتل في يوم جبلة، وثانيا، على أبي عبيدة (**النقائض**، تحقيق بيفان، ليدن: بريل، ١٩٠٥- ٧ (= نقائض)، الذي يرى أن هذا اليوم وقع قبل الإسلام بأربعين عاما، أي قبل تاريخه الحقيقي بأكثر من عشرين عاما.

(٣) الإصفهاني ج١٧ ص٣٦٧؛ البغدادي ج٣ ص١٢٢؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق مفيد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤ ج٣ ص١٩٨؛ ابن حمدون، أبو سعد الحسن بن محمد (٦٠٨هـ/١٢١١م)، **التذكرة الحمدونية**، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، بيروت: دار صادر، ١٩٩٦، ج٢ ص٢٩٧.

(٤) بشر بن أبي خازم الأسدي (بعد ٦٠٠م)، **الديوان**، تحقيق عزة حسن، بيروت: دار الشرق العربي، ١٩٩٥، ص٢١.

نصرة بني أسد في حرب ما، ولأنه، بدلا من ذلك، استنصر بقوم آخرين، فلم يغنوا عنه شيئا. ولا نعرف شيئا عن هوية هؤلاء القوم، فضلا عن تلك الحرب. وفي الأثناء، يستحضر عبيد محاماة بني أسد عن ذلك الرجل في يوم شطب:

دعا معاشر فاستَكَّتْ مسامعهم   يا لهفَ نفسي لو تدعو بني أسد
تدعو إذا حامي الكماةُ لا كسلاً   إذا السيوفُ بأيدي القومِ كالوقَد
لو هم حماتُك بالمحمى حموك ولم   تُتْرك ليومٍ أقام الناس في كَبَد
كما حميناك يوم النعف من شَطَبٍ   والفضلُ للقومِ من ريحٍ ومن عدد

وليس مهما، على أية حال، معرفة تفاصيل مناسبة هذه القصيدة، بل المهم أن عبيدا يذكر الحادثة من موقف المعاصر لها. ولحسن الحظ، يرد لها ذكر في شعر بشر بن أبي خازم[1]، مع بعض التفاصيل المفيدة، وبصفة خاصة هوية أعداء بني أسد فيها، وهم بنو عامر بن صعصعة، وكذلك اسم أحد سادة بني عامر هؤلاء، وهو الطفيل بن مالك، والد السيد العامري المعروف عامر بن الطفيل:

وسلْ نُميرا غداةَ النعف من شَطَبٍ   إذ فُضت الخيلُ من ثَهلان ما ازدهفوا؟
لما رأيتم رماح القوم حطّ بكم   إلى مرابطها المقورةُ الخُنُفُ
إذ يتّقى ببني بدرٍ وأَردفَهم   خلفَ المناطق منّا عاند يكفُ
فأصبحوا بعد نُعماهم بمبأسة   والدهر يخدع أحيانا وينْصرِفُ
تَبكي لُهم أعين من شَجوِ غيرِهم   فإن بكى منهم باك فقد لُهفُوا
أما طفيلٌ فنجاه أخو ثقَة   من آل أَعوج يعدو وهو مشْترِفُ

ومن الواضح أن صلة الطفيل بهذا اليوم تجعل الحدث قريبا من ظهور الإسلام؛ فكل من ابنه عامر وأخيه أبي براء عامر بن مالك مذكور في عداد الصحابة. وحين يترجم ابن حجر لأبي براء، بصفة خاصة[2]، يثبت صحبته للنبي عليه السلام من عدة طرق.

٢) يوما النسار والجفار. وقد ذكرهما عبيد في موطن واحد في القصيدة رقم ٢؛ وهما مذكوران كذلك في شكل متلازم في شعر بشر بن أبي خازم[3]؛ وذكرهما معا أيضا شعراء آخرون[4] منهم

(١) بشر بن أبي خازم، ق ٢٨: ٦- ١١.

(٢) ابن حجر، ترجمة ٤٦٢١.

(٣) بشر بن أبي خازم، ق ٣٩: ١٦.

(٤) انظر: أبو عبيدة، معمر بن المثنى (٢٠٩هـ/٨٢٤م)، كتاب **الديباج**، تحقيق عبد الله الجربوع وعبد الرحمن العثيمين، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩١، ص١٤٥؛ البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥١، "غرية؛ الحموي، "النسار".

النابغة الذبياني[1]. وهذا التلازم يعود، كما نفهم من الأشعار ذات العلاقة، إلى، أولا، أن بني أسد وحلفاءهم من ذبيان والرباب وآخرين واجهوا في النسار والجفار حلفا عقده بنو دارم التميميون مع بني عامر بن صعصعة، وثانيا، أن الحدثين وقعا بالتتابع دون فاصل زمني يذكر. ونفهم من تلك الأشعار أيضا أن الحدثين وقعا بعد يوم جبلة بزمن قصير. وهذه الحقائق جميعا تتضمنها رواية أبي عبيدة عن الحدثين[2]. لكن أبا عبيدة يؤرخ يوم جبلة بأربعين أو خمسة وأربعين عاما قبل الإسلام[3]، مع أن روايته تفيد بأن هذا الحدث وقع في عهد النعمان بن المنذر، وهو ما تؤكده كل الأدلة؛ والنعمان استلم الحكم قبل الإسلام بأقل من ثلاثين سنة. وهذا التناقض جعل بعض الدارسين يؤرخون يوم جبلة في السنة الأولى من حكم النعمان، أي سنة ٥٨٠م؛ وهي محاولة واضحة للتوفيق، لكنها ليست ضرورية. فالفحص المتأني لخبر يوم جبلة يثبت أنه وقع في تسعينيات القرن السادس للميلاد، في أواسطها على الأرجح[4]؛ وهذا يعني أن يومي النسار والجفار وقعا في نهاية القرن السادس للميلاد. ولو فرضنا، جدلا، أنهما وقعا في وقت مبكر من حكم النعمان بن المنذر، فإنهما يبقيان دليلا على تأخر جيل عبيد بن الأبرص عما هو في الاعتقاد الشائع.

٣) يوم الرباب. هكذا يرد اسم اليوم في البيت الثاني عشر من القصيدة السابعة عشرة:

ويوم الربابِ قد قتلنا همامها　　وحجراً قتلناه وعمرا كذلكا

وسجل أيام العرب يخلو من خبر عن يوم بهذا الاسم، لكن النزاع بين بني أسد والرباب يظهر له صدى في موطنين من شعر بشر بن أبي خازم. فهو يقول في الأول[5]:

وأصعدت الرباب فليس منها　　بصارات ولا بالحبس نار
فحاطونا القصا ولقد رأونا　　قريبا حيثُ يستَمع السرار
يسومون الصلاح بذات كهف　　وما فيها لهم سلَع وقار

ويقول في الثاني، كاشفا أكثر عن طبيعة العداوة بين الطرفين[6]:

فسائلْ بقومي غَداةَ الوغى　　إذا ما العذارى جلَون الخداما
وكعبا فسائلْهم والرباب　　وسائلْ هوازن عنا إذا ما

(١) النابغة، ق٢٣: ١٥- ١٦.

(٢) نقائض، ص٢٣٨، ٧٩٠.

(٣) السابق، ص٦٧٦.

(4) Ramini, Irsan, The Tribe of Tamim and the Origins of the Early Crisis in the Caliphate, PhD. Thesis, Cambridge Univ., 1989, (= Ramini, Origins), p. 39

(٥) الديوان، ١٥: ٢٨-٣٠.

(٦) بشر بن أبي خازم، ق ٣٩: ٩- ١١.

لَقيناهم كيفَ نعلوهـــم بواتر يفْرِين بيضاً وهامـا

ومن الواضح أن تردي العلاقات بين أسد والرباب حدث بعد أيام جبلة والنسار والجفار، لأن الطرفين قاتلا معا في هذه الوقائع ضمن ائتلاف الحيرة القبلي(1). لكن بسقوط مملكة الحيرة بعد ذلك بزمن قصير، فقد هذا الائتلاف مرجعيته السياسية وعامله الموحد، وبالتالي، كان طبيعيا ألا ينجح أعضاؤه في حل كل ما يقع بينهم من خلاف. ويبدو أن تكون قبائل الرباب، وهي خمس قبائل صغيرة تنحدر من أد بن طابخة، قد تحالفت فيما بينها في أعقاب الضعف الذي راح يجري في أوصال مملكة الحيرة في أواخر حكم النعمان بن المنذر. ولدى أبي عبيدة معلومة مهمة في هذا السياق. فهو يعلق على ورود اسم الرباب في أشعار منحولة تنسب إلى امرئ القيس، فيقول "ولم يكونوا ذلك الوقت يدعون ربابا وإنما ترببوا بعد ذلك"(2). وينبغي لهذا التعليق أن يفهم في ضوء بيتين من الشعر لبشر بن أبي خازم يردان في قصيدته الرائية، المقتبسة أعلاه، ويشفان عن تفكك حلف الحيرة القبلي في نجد:

ولما أن رأينا الناس صاروا أعادي ليس بينَهم ائتمـار
مضى سلّافُنا حتى نَزلْنـا بأرضٍ قد تحامتها نـزار

٤) يوم ساحوق. وهو حلقة من حلقات الحرب بين أسد وبني جديلة من طيئ. ويذكره عبيد في قصيدة يخصصها للتغني بانتصارات قومه في هذه الحرب. وهنا أيضا، يبرز شعر بشر بن أبي خازم مرة أخرى بوصفه مصدرا يعيننا في تحديد زمن الأحداث المذكورة في شعر عبيد. فالعداوة بين أسد وجديلة أنتجت شريحة واسعة من شعر بشر، وهي تظهر أساسا في قصائد الهجاء التي نظمها في سيد بجيلة غير منازع آنذاك أوس بن حارثة بن لأم. ولأوس بن حارثة سجل حافل بالأحداث، يدل دلالة واضحة على أنه نشط عشية الإسلام؛ وهو يظهر ظهورا بارزا كذلك في شعر شعراء آخرين معروفين عاشوا في الفترة نفسها، مثل حاتم الطائي. ويستنتج من شعر هذا الأخير، ومن مواد أخرى، أن علاقة وطيدة كانت تربط أوسا بالغساسنة، وأن بعض تجليات هذه العلاقة تعود إلى أوائل القرن السابع للميلاد(3). يضاف إلى ذلك أن أحد أبناء أوس، واسمه صريم، شهد فتح العراق وجعله عمر بن الخطاب في ألفين وخمسمائة من العطاء(4).

---

(1) Ramini, Origins, p. 37- 38.

(2) ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، **العمدة في نقد الشعر وتمحيصه**، تحقيق عفيف حاطوم، بيروت: دار صادر، ٢٠٠٣، ج٢ ص١٦٣.

(3) حول علاقة بشر بأوس بن حارثة وخلفيتها السياسية وصلة شعر حاتم بذاك، انظر الراميني، ارتباط، ص ٣٠١-.

(4) ابن الكلبي، محمد بن السائب (٢٠٤هـ/٨١٩م)، **نسب معد واليمن الكبير**، تحقيق ناجي حسن، بيروت: عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، ١٩٨٨، ص٢٢٥.

ويذكر أبو عبيدة يوم ساحوق على أنه انتصار لذبيان على بني عامر بن صعصعة. ومن المحتمل أن أبا عبيدة وعبيدا إنما يتحدثان عن مناسبة واحدة، وذلك في ضوء، أولا، الحلف الذي كان قائما بين أسد وذبيان، وثانيا، حتمية التعاون والتنسيق بين جديلة وبني عامر بحكم عدائهم المشترك لأولئك، من جهة، وتبعيتهم للغساسنة المتأخرين، أعداء أسد وذبيان اللدودين، من جهة أخرى[1]. فإذا كان الأمر كذلك، فإن عبيدا يتغنى بانتصار قومه في يوم وقع في أواخر القرن السادس للميلاد أو أوائل السابع، كما يستدل من مشاركة عامر بن الطفيل فيه.

وهكذا، يتبين من كل الحقائق المتصلة بعبيد بن الأبرص، سواء في سيرته أو في شعره، أنه ينتمي إلى جيل ما قبل البعثة النبوية، وهو ما يتفق مع سلسلة نسبه كما يثبتها علماء الأنساب، وأيضا مع سلسلة نسب ابن حفيده بدر بن دثار كما يسجلها ابن سعد. وينبغي، بالطبع، ألا يتخذ من الاعتقاد السائد قديما وحديثا حول عمره شبه الخرافي ذريعة للتقليل من أهمية هذه النتيجة، فيقال إن حياته، التي امتدت قرنا ونصف القرن من الزمان حسب أقل التقديرات، جعلته يعاصر كل أحداث القرن السادس للميلاد، وأوائل السابع. فهذا المنطق نفسه، لكن في صورة أخرى، هو الذي حال بين الأخباريين وملاحظة وجه الغرابة في صلة عبيد بتلك الأحداث جميعا، ولم يكن لديهم تفسير سوى الذهاب، في تقدير عمره، بعيدا وراء الحدود الطبيعية. فلو افترضنا، جدلا، أن عبيدا عاش هذا العمر المديد، لكانت وفاته قد حدثت، بالنظر إلى سلسلة نسبه، في أواخر الخلافة الأموية، أو أوائل العباسية، ولكان عاصر أبناء أحفاده، مثل بدر بن دثار؛ أو، بالمثل، لو افترضنا جدلا أن سلسلة نسبه غير صحيحة وأنه عاش عمره هذا كله في الجاهلية، لكان جميع ما وصلنا من شعره قد قاله وهو في المائة الثانية من عمره.

ينتمي عبيد بن الأبرص، إذن، إلى جيل ما قبل البعثة النبوية. هذه النتيجة تضعنا وجها لوجه أمام مواطن في ديوانه يدعي الشراح أنه يخاطب بها الشاعر امرأ القيس بن حجر الكندي. وهذه المواطن يمكن تصنيفها في فئتين: الأولى مواطن يخاطب فيها ابنا لحجر بن أم قطام شامتا بمقتل أبيه على يد بني أسد، ومستخفا بوعيده بالانتقام؛ والثانية مواطن تظهر فيها تفاصيل من سيرة امرئ القيس، أو تظهر فيها ملامح من شخصيته كما يقدمها الأخباريون وشراح الشعر، وبالتحديد، ولعه بالنساء والغناء وإدمانه على شرب الخمر. فشعر هذه الفئة الثانية أصبح من المتعذر قبوله، بعد أن ثبت أن عبيدا وامرأ القيس لا يمكن أن يكونا قد تعاصرا. في الواقع، ربما لم يكن عبيد قد

(١) الراميني، ارتباط، ص ٢٩٩- ٣٠٦.

ولد بعد حين قضى امرؤ القيس نحبه في وقت مبكر من أربعينيـات القـرن الـسادس للمـيلاد[1]. يضاف إلى ذلك أن هذا الشعر يتضمن في ذاته الدليل على وضعه في وقت متأخر، فـي الإسـلام على الأرجح. ففضلا عن التوليد الواضح في لغته، من نحو ما جاء في القصيدة السابعة عشرة:

فلا أنتَ بالأوتارِ أدركتَ أهلَها ولم تكُ إذ لم تَنتصِر متماسكا

وركضكَ لولاه لقيتَ الذي لقُوا فذاك الذي أنجاك مما هنالكا

فإن هذا الشعر يستبق الأحداث بمنطق ساذج حين يستشرف، بلغة مباشرة، موت امرئ القيس خلال رحلته إلى قيصر، كما جاء في القصيدة الرابعة:

لما رأيتَ جموعَ كندةَ أحجمـت عنا وكندةُ جِد غير كـ ـ ـرام

أزعمتَ أنك سوفَ تأتي قيصرا فَلتهلكن إذن وأنت شـ ـ ـآمي

تأبى على الناسِ المقادة كلهـ ـم حتى تقودهم بغيرِ زمـ ـ ـام

وقد جاء البيتان الثاني والثالث ناشزين في القصيدة ومتطفلين عليها، وهمـا أيـضا غيـر مترابطين فيما بينهما، فضلا عن ضعف صلتهما بالبيت قبلهما.

وهناك ملاحظة أخرى، وهي أن هذا الشعر يتولى عرض الصورة النمطية لامرئ القـيس، موجها إليه على لسان عبيد نقدا مسلكيا لم تعرفه قصائد الهجاء في شعر ما قبل الإسلام، ولا ثقافـة عرب الجاهلية؛ وذلك من نحو ما هو متضمن في الأبيات التالية من القصيدة السابعة عشرة:

وأنتَ امرؤٌ ألهاك دف وقينـ ـةٌ فتصبح مخموراً وتمسي كذلكا

عن الوترِ حتى أحرز الوتر أهلُه وأنت تبكي إثْره متهالـ ـ ـكا

ظَللت تغني إن أصبتَ وليـ ـدةً كأن معداً أصبحت في حبالكا

فهذا الشعر يبدو نسخة أخرى من روايات الأخباريين، لكن ليال (Lyall) شك في صـحته. وهو، من جانب آخر، يماثل أشعارا منسوبة إلى امرئ القيس من غير أن يشتمل عليهـا ديوانـه، وذلك من نحو هذه الأبيات:

سقينا امرأَ القيسِ بن حجرِ بن حارث كؤوس الشجا حتى تعود بالقـ ـ ـ ـهر

وألهاه شرب ناعم وقراقـ ـ ـ ـ ـ ـر وأعياه ثأر كان يطلب في حـ ـ ـ ـجر

وذاك لَعمري كان أسهلَ مشرعـ ـا عليه من البِيضِ الصوارمِ والسمـ ـ ـر

(1) Irfan Shahid, *Byzantium and the Arabs in the sixth century*, Dumbarton Oaks, Research Library and Collection, Washington, D.C (= Shahid), pp. 214-6

وفي تعابير مشابهة وإقحام مكشوف، تتكرر هذه الصورة النمطية في قصائد لشعراء أسديين آخرين، خلال تغنيهم بالانتصار على حجر؛ وهذا يتضح تماما في البيت الخامس من الأبيات التالية المنسوبة إلى عمرو بن شأس الأسدي(١):

ونحن قتلنا الأجـدلين ومـالكاً   أبا منذرٍ والـجمع لـم يتـزيل
وقُرصاً أزالته الرمـاح كـأنما   ترامتْ به من حالق فوقَ مهبل
وحجراً قتلنا عـنوةً فـكـأنما   هوى من حفافي صعبة المتنزل
فما أفلحتْ في الغزوِ كندةُ بعدها ولا أدركوا مثقـالَ حبة خردل
سوى كلمات من أغانـي شاعرٍ   وقتلى تمنى قتلهـا لم تُقـتـل
ونحن قتلنا بالـغـرات وجزعه   عدياً فلم يكسر به عود حرمـل

فهناك، كما يبدو، توظيف ممنهج لحادثة مقتل حجر بن الحـارث ربمـا لأسـباب تتعلـق بالعصبيات القبلية التي استعرت نارها في الإسلام. ومع ذلك، إذا كان لحجر الذي قتله بنو أسد ابن يقال له امرؤ القيس-- وهذا محتمل جدا، بصرف النظر عن الوضع في الأشعار السابقة-- فينبغي أن يتم البحث عنه بين رجال الجيل السابق لجيل البعثة، وهي مهمة تبدو غير ممكنة الإنجـاز فـي ضوء المعلومات المتاحة في المصادر.

هذه الملاحظة لا تصدق على شعر الفئة الأولى؛ أي الشعر الذي يخاطب فيه عبيـد "ابـن حجر بن أم قطام"، مجردا من ملامح الصورة النمطية لامرئ القيس. في الواقع، إذا توقفنـا عنـد بعض ما يرد في هذا الشعر من إشارات، نجد صورة ابن حجر بن أم قطام تناقض، أو في الأقـل تخالف، بعض ما يقوله الأخباريون عموما عن امرئ القيس. فالمعروف بين الأخباريين، مثلا، أن امرأ القيس لم يكن يقيم في مكان معين: قبل مقتل أبيه، كان متسكعا في البوادي هو وزمـرة مـن الصعاليك والجواري؛ بعد ذلك، كان جوالا، إما هاربا من ملك الحيرة آنذاك، المنذر بن ماء السماء، وإما متصلا بالقبائل طالبا أن تمده برجال يقاتل بهم بني أسد، ولذلك سمي "الملك الضليل"(٢). لكن، في مقابل هذه الصورة، نجده في شعر عبيد بن الأبرص ملكا مستقرا في قاعدة ملك، يعبيء الجنود ويرسلهم للحرب، ويحمي أراضي ويتولى الدفاع عنها ضد المعتدين(٣):

نحن الأولى جمع جمـــــو   عاً ثم وجههم إلينـــــــا
واعلم بأن جيادنـــــــا   آلين لا يقْضين دينـــــــا

(١) عمرو بن شأس الأسدي (بعد ٦٠٠م)، الديوان، تحقيق يحيى الجبوري، ط٢، الكويت: دار القلم، ١٩٨٣، ق ٥: ٣٢- ٣٧.
(2) *EI*., v.s. Imru' al-Kays b. Hudjr.
(٣) Lyall ق٧: ١٢-١٤.

ولقد أبحنا ما حـــــميتَ ولا مبيح لما حميناـــــا

فـ "ابن حجر"، إذن، تظهر له شخصيتان في الشعر المنسوب إلى عبيد بن الأبرص، الأولى حقيقية، والأخرى زائفة— الأولى لابن حجر بن أم قطام، والأخرى للشاعر امرئ القيس الكندي. الآن، إذا كان حجر بن الحارث بن عمرو الكندي، والد امرئ القيس معروفا لدينا، فمن هو حجر بن أم قطام الذي يذكره عبيد بن الأبرص؟ وكيف اختلطت شخصيته على الأخباريين وشراح الشعر، فألبسوه ثياب غيره ونسبوه إلى عصر غير عصره؟

حجر بن أم قطام وتداخل الأحداث

ليس عبيد بن الأبرص وسادة آخرين من بني أسد وحدهم الذين تتطفل اسماؤهم على أحداث قصة مقتل حجر بن الحارث، بل هناك آخرون غيرهم. ففي الأخبار المتعلقة بمساعي امرئ القيس للانتقام من قتلة أبيه يظهر عدد من سادة القبائل يقال إنه استجار بهم أو استنصرهم على بني أسد؛ لكن لدى فحص سجلاتهم، في المقابل، نجد أنهم عموما ينتمون إلى جيل متأخر عن جيل امرئ القيس، وبالتالي، لا يمكن أن تكون لهم صلة به، فضلا عن صلتهم بأبيه.

وأبرز هؤلاء السادة السموأل بن عادياء صاحب حصن تيماء، الذي أشار على امرئ القيس بالتوجه إلى قيصر لطلب العون، فقبل امرؤ القيس مشورته واستودعه أدراعه، كما تقول الرواية. ففي ديوان ديوان الأعشى ميمون بن قيس[١]، وهو معاصر للنبي، قصيدة يمدح بها سيدا له علاقة بالسموأل اسمه شريح؛ والرواية المتداولة في المصادر تذكر أن شريحا هذا هو ابن السموأل بن عادياء. فإذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن السموأل ساد في فترة متأخرة من القرن السادس للميلاد. صحيح أن ابن بري يجعل السموأل الجد الثاني لشريح[٢]، وهو ما يتفق زمنا مع ما يقال عن اجتماعه بامرئ القيس، لكن الميمني[٣] يناقش سلسلة نسب السموأل معتمدا على أن شريحا ابن له وليس حفيدا أو ابن حفيد. وهناك أيضا معلومة أخرى تفيد أن السموأل من رجال النصف الثاني من القرن السادس. فابن حجر[٤] يترجم لابن أخي السموأل، واسمه سعية بن عريض بن عادياء، قائلا إنه "أدرك الجاهلية والإسلام، ومات في زمن معاوية؛" وقد ضبط ابن ماكولا[٥] اسم سعية وحقق نسبه كما ورد لدى ابن حجر. يضاف إلى ذلك أن أبا حفصة، جد الشاعر مروان بن أبي

(١) الأعشى، ق ٢٥.

(٢) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم(٧١١هـ)، **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ١٩٦٨، "عبد".

(٣) سمط، ج١ ص٥٩٥- ٦.

(٤) ابن حجر، ترجمة ٣٤٢٠.

(٥) ج٧ ص٧.

حفصة، كان طبيبا يهوديا اشتراه عثمان بن عفان (رضي ا عنه)؛ ويتفق رواة أهل المدينة كما يقول ابن منظور[١] على أنه كان مولى للسموأل بن عادياء، قبل أن يشتريه عثمان[٢].

ويبرز إلى جانب السموأل في قائمة من استجار بهم امرؤ القيس سادة طائيون، منهم عامر بن جوين بن عبد رضا. وعامر هذا شاعر وكذلك ابنه الأسود. وتروي لهما المصادر أشعارا لا تقل في مستواها الفني عن أشعار الفحول، لكنها لا تتضمن معلومات دقيقة تنبئ بعصريهما. إلا أننا نعرف من ابن الكلبي[٣] أن قبيصة بن الأسود، حفيد عامر بن جوين، وفد على النبي. ويخبرنا ابن سعد، من جانبه[٤] أن النبي كتب لأخي قبيصة، عامر بن الأسود، كتابا بخط المغيرة بن شعبة يعترف له ولقومه بما يدعونه من أراض وأملاك طالما "أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وفارقوا المشركين". ولعامر بن جوين ابن عم لحا تولى حفيد له يدعى "حابس بن سعد بن المنذر بن يثربي بن عبد رضا" قضاء حمص في خلافة عمر بن الخطاب، وقد شهد معركة صفين مع معاوية وقتل فيها[٥]. هذه المعلومات تجعل عامر بن جوين من رجال النصف الثاني من القرن السادس، وتضعف جدا احتمال أن يكون ساد في زمن حجر بن الحارث في الثلث الأول من ذلك القرن. في الواقع، هناك خبر يرويه المرزوقي[٦] يدل على أن عامر بن جوين عاصر منظور بن سيار الطائي، وابن حجر، من جانبه[٧]، يدرج أحد أبناء منظور بن سيار، وهو ورد بن منظور، فيمن أدرك النبي عليه السلام، أي من عاصر النبي ولم يفد عليه.

وما يصدق على عامر بن جوين يصدق على الآخرين من سادة طيء، وهم المعلى بن تيم، وخالد بن سدوس، وحارثة بن مر[٨]. فمن بعض الأخبار يتضح أن هذا الأخير كان معاصرا لحاتم

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، **مختصر تاريخ دمشق**، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٤، ج٢٤ ص١٩٦.

(٢) ينكر Margoliouth أن يكون السموأل شخصية حقيقية؛ ويذهب Winkler إلى أن قصة وفائه في حماية ما استودعه إياه امرؤ القيس هي اسطورة استمدت مادتها من أسفار صموئيل الأول في التوراة ومن الأساطير العربية القديمة، نظمت على هذه الصورة، فجعل بطلها شخصين هما السموأل وامرؤ القيس. (عن جواد علي. **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. بيروت وبغداد: دار العلم للملايين ومكتبة النهضة، ١٩٧٦، ج٣ ص٢٧٣).

(٣) زبيدي، "قبص".

(٤) ج١ ص٣٢١.

(٥) انظر ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (٤٥٦هـ/١٠٩٣م)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون، ط٥، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢، ص٤٠٣.

(٦) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد (٤٢١هـ/١٠٣٠م)، **الأزمنة والأمكنة**، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، د ت، ج٢ ص١٧٠.

(٧) ابن حجر، ترجمة ٩٤٢٧.

(٨) لضبط اسمه، انظر ابن ماكولا ج٢ ص٨.

الطائي[١]؛ ويروي الميداني[٢] شعرا لبعض الطائيين، قد يدل على أن حارثة كان معاصرا لحاتم فعلا؛ ومن المعروف أن حاتما من رجال جيل ما قبل البعثة، وكان ابنه عدي صحابيا معروفا، شهد الفتوح، وسكن الكوفة وقاتل في صفين. أما خالد بن سدوس فقد كان ابن أخيه وزر بن جابر بن سدوس، في وفد بني نبهان إلى النبي برئاسة زيد الخيل الطائي[٣]. وأما المعلى بن تيم، وهو المقصود بـ "المعلى" المذكور في شعر امرئ القيس، كما يرى الشراح، فإن حفيده شابة بن معقل كان ممن أدرك النبي ولم يفد عليه[٤].

وممن قيل كذلك إن امرأ القيس استجار بهم الحارث بن شهاب، سيد بني ثعلبة بن يربوع التميميين؛ وابن الحارث هذا، عتيبة، أحد فرسان العرب المعدودين؛ وقد تجلت فروسيته في معارك خاضها ضد بكر بن وائل وعامر بن صعصعة[٥]، وكل تفاصيلها تدل على أنه كان ينتمي إلى جيل البعثة؛ ومن بين هذه التفاصيل شعر للصحابي العباس بن مرداس السلمي[٦] يذكره فيه من موقف المعاصر له.

وهكذا، تلتقي الأدلة من كل حدب وصوب لتؤكد أن الأخباريين، في روايتهم لقصة مقتل حجر بن الحارث الكندي ومساعي ابنه للأخذ بثأره، يخلطون بين الأزمنة، وكذلك بين رجالها. نظريا، هناك غير تفسير واحد لهذا السلوك. فربما يقال، مثلا، إن الشعر المنسوب إلى امرئ القيس ترد فيه أسماء مفردة غير واضحة الهوية؛ والشراح، من جانبهم، يحددون هذه الهوية اعتمادا على معلومات ينتهي إسنادها في الغالب عند رواة عاشوا في الخلافة العباسية أو في أواخر الخلافة الأموية. ولما كانت الأسماء تتشابه، وأحيانا تتشابه سلاسل النسب أو منظومات فيها، ولما كانت الأحداث القريبة من الإسلام هي المهيمنة على تضاعيف ذاكرة الرواة عموما، فمن الطبيعي أن تتجرد الأحداث القديمة من كثير من تفاصيلها وترتدي بدلا منها تفاصيل مشابهة مستلة من أحداث لاحقة. ويساعد في استشراء هذه الحالة افتقار الأخباريين للأدوات التي تمكنهم من تحديد تواريخ الأحداث ووفيات الأشخاص، حتى في صورة تقريبية.

وفي تفسير آخر، يمكن القول—وهذا جريء جدا—إن امرأ القيس عاش في النصف الثاني من القرن السادس للميلاد، وليس في النصف الأول كما يعتقد عموما، وبالتالي، لا يكون الأخباريون

(١) الإصفهاني، ج١٧، ص٣٩٦.
(٢) ج١، ص٣٩٣.
(٣) ابن سعد، ج١، ص٣٢١.
(٤) ابن حجر، ترجمة ٣٩٦٢.
(٥) انظره في فهارس مصادر الأيام.
(٦) الإصفهاني، ج١٥، ص٣٤٦- ٧.

مخطئين في تحديد هويات سادة القبائل الذين التقى بهم. وهذا التفسير يلغي تلقائيا أن يكون امرؤ القيس ابنا لحجر بن الحارث بن عمرو أصلا، وقد يجد له متكأً في رواية ينقلها الإصفهاني[١] تثبت لامرئ القيس سلسلة نسب تخالف المألوف تماما. لكن هذا التفسير يثير من المشاكل أكثر مما يحل. وربما يقال، في تفسير ثالث أقل جرأة، إن المتأخر زمنا هو الشعر المنسوب إلى امرئ القيس، وليس امرأ القيس نفسه. فالموثوق من شعره إنما يشكل جزءا يسيرا مما يشتمل عليه ديوانه؛ حتى هذا الجزء اليسير ينبغي أن يتم التعامل معه بحذر بالغ. وفي هذه الحالة، ربما كانت الأسماء المذكورة في الأشعار المنسوبة إليه لا تختلف عنها في روايات الأخباريين؛ فقائلو هذه الأشعار الحقيقيون إنما عاشوا في فترة لاحقة، ثمة عودة الأسماء المذكورة فيها إلى زمن لاحق.

وبصرف النظر عن مدى الصدق في هذه التفسيرات فالمناقشات السابقة تشير بقوة إلى حقيقة كبيرة، وهي أن الأخباريين، بسبب تشابه أسماء وتشابه وقائع، أخذوا مواد تتصل بحدث وقع عشية الإسلام، ومنها شعر لعبيد بن الأبرص، وربطوها بمقتل حجر بن الحارث الكندي وبسعي ابنه للثأر من قتلته. بعبارة أخرى، هناك حدثان متباعدان زمنيا اندمجا نتيجة للتشابه بين مكونات أساسية فيهما، بحيث أصبح الحدث الأسبق يشكل الخط العريض في الخبر، بينما استعيرت التفاصيل من الحدث اللاحق، أو أن تفاصيل الحدث اللاحق حلت، بفعل حضورها الأقوى في الذاكرة، محل تفاصيل الحدث الأسبق وتفاوتت نسبة هذا التشويه بين رواية وأخرى.

ولعل هذا الخلط هو الذي يفسر الاختلاف، وأحيانا التضارب، بين الروايات، فيما يتعلق بجوانب مختلفة من تلك القصة: سبب ثورة بني أسد على حجر؛ مكان إقامته حين وقعت الثورة؛ ما فعله حين بلغته أنباؤها؛ طريقة قتله؛ هوية قاتله؛ حضور ابنه القتال مع والده أو غيابه عنه؛ مصير مساعي ابنه للثأر من بني أسد؛ ... إلخ. وهذا النوع من الخلط بين الأحداث، سواء تباعدت في الزمن أو تقاربت، ليس أمرا غير مألوف في روايات الأخباريين. في الواقع، هناك أمثلة عديدة عليه؛ وقد أشار كل من Bevan[٢] إلى بعضها، في أيام الرقم، وساحوق، والنسار؛ حتى يوم جبلة، فإن التاريخ غير المحتمل (منتصف القرن السادس) الذي يقترحه له ابن الكلبي هو، على الأرجح، لحدث آخر توجد بينه وبين جبلة قواسم مشتركة من حيث المكان والأطراف المتحاربة ونتيجة المعركة، وربما كان هذا الحدث هو معركة "حلبان" التي وقعت في منتصف القرن السادس للميلاد بين أبرهة وقبائل معدية يقودها عمرو بن المنذر بن ماء السماء.

---

(١) ج٩، ص٧٧ ("وقال بعض الرواة هو امرؤ القيس بن السمط بن امرئ القيس بن عمرو بن معاوية بن ثور، وهو كندة").
(٢) نقائض، ص٢٣٨، (هامش).

وهذه النتيجة الخاصة بزمن حجر بن أم قطام ينبغي ألا تتأثر بورود اسمه في بيت من الشعر منسوب إلى امرئ القيس في مجموعة الأعلام الشنتمري[١]. فقيمة هذا البيت لا تختلف عن قيمة بيت آخر منسوب إلى الحارث بن عباد البكري[٢]، أحد أبطال حرب البسوس، يذكر فيه حجر بن أم قطام، ناسبا إياه إلى كندة ومتغنيا بالانتصار عليه. فإلى جانب شك القدماء والمحدثين معا في صحة الشعر المنسوب إلى الحارث بن عباد خاصة، وشعر حرب البسوس عامة، فقد غاب عن ذهن صاحب تلك الأبيات ما كان قائما آنذاك من حلف وثيق بين كندة وبكر بن وائل. وامرؤ القيس نفسه، ينسب إليه بيت من الشعر، في قصيدة من مرويات المفضل الضبي والأصمعي[٣]، يفتخر فيه بأن جده الحارث بن عمرو "له ملك العراق إلى عمان"، مضيقا بذلك رقعة سلطان جده لتقتصر على شرقي الجزيرة العربية، في حين كان سلطان جده يشمل وسط الجزيرة العربية وغربيها أيضا صعودا إلى جنوبي سوريا، كما يفهم من الوثائق السريانية والإغريقية، فضلا عن المصادر العربية[٤]. وعلى أية حال، ليس هناك شعر شاعر جاهلي في تدني مستوى صحته كشعر امرئ القيس؛ والإشارات التاريخية فيه بصفة خاصة ينبغي أن تؤخذ بحذر شديد. وهذا يصدق حتى على ما رواه منه المفضل والأصمعي، اللذين نظر ابن سلام إلى مروياتهما، هنا، بشيء من الريبة والشك، كما يفيد البستاني[٥].

هوية حجر بن أم قطام

اتّضح حتى الآن أن حجر بن أم قطام ينتمي، كعبيد بن الأبرص، إلى جيل ما قبل البعثة النبوية، وأن الأخباريين غير مصيبين في تحديد هويته على أنه والد الشاعر امرئ القيس الكندي. لكن المهمة حين تتجاوز هذا الحد إلى معرفة العائلة المالكة التي ينتمي إليها حجر فإنها تصبح محفوفة بالمخاطر. فبالنظر إلى العداوة التي استفحلت بين بني أسد والغساسنة عشية الإسلام، يبدو من السهل للوهلة الأولى أن نقول إن حجرا هذا ملك غساني؛ في الواقع، لا بد أن يكون ملكا غسانيا إذا نظرنا إليه من زاوية الارتباطات السياسية للقبائل كما كانت قائمة آنذاك. فالعائلتان العربيتان المالكتان الأخريان مستثنيتان من أي احتمال بالنسبة إلى تلك الفترة: آل نصر بسبب حلفهم الوثيق

(١) الشنتمري، الأعلم يوسف بن سليمان (٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، **أشعار الشعراء الستة الجاهليين**، ط٢، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣، ق ١٥: ١٨.

(٢) شيخو، لويس، **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، ط٤، بيروت: دار المشرق، ١٩٩١، ص٢٧٧.

(٣) امرؤ القيس بن حجر (٦٤٢م)، **الديوان**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤، ق ٢٦: ١.

(4) Olinder, G., "The Kings of Kinda," *Lunds UniversitetsArsskrift* 23 (1927), p. 58f.; Shahid, p. 149f.

(5) *EI*., v.s. Imru' al-Kays b. Hudjr.

مع بني أسد؛ وآل آكل المرار بسبب ارتباطهم الفارسي، سواء حين كانوا بالبحرين قبل هزيمتهم في يوم جبلة الذي قاتلوا فيه جنبا إلى جنب مع بني أسد، أو بعد ذلك حين انتقلوا إلى حضرموت.

ومما يعزز احتمال أن يكون حجر بن أم قطام ملكا غسانيا أن اسم "حجر" مستخدم كثيرا في آل جفنة، وقد تسمى به، في الأقل، ثلاثة ملوك منهم، وفقا لقوائم الأخباريين، أحدهم ابن للنعمان بن الحارث، الذي يكنيه النابغة الذبياني في بعض قصائده بـ "أبي حجر"[١]:

فما كان بين الخيرِ لو جاء سالماً أبو حجرٍ إلا ليالٍ قلائل

والملكان الآخران حكما في الفترة ذاتها أو أبكر قليلا، الأول حجر بن الحارث بن جبلة، أخو المنذر بن الحارث الذي قبض عليه البيزنطيون في سنة ٥٨١م، والآخر ابن لهذا المنذر.

وقد وردت الإشارة في غير موطن واحد في الشعر الجاهلي إلى "حجر وعمرو" بوصفهما ملكين ماتا قتلا، وذلك في سياق جعل الشراح ينسبونهما إلى الغساسنة. وأوضح هذه المواطن صلة بالغساسنة قول حسان بن ثابت[٢]:

من يغر الدهر أو يأمنُه من قتيلٍ بعد عمرو وحجر

ملكا من جبل الثلج إلى جانبي أيلةَ من عبد وحر

فـ"عمرو" و"حجر" في هذا الشعر هما، حسب ابن قتيبة[٣]، ولدا النعمان بن الحارث الغساني (ممدوح النابغة الذبياني)؛ وهذا ما يقوله ابن منظور[٤] في حجر بصفة خاصة. وترد في شعر عبيد بن الأبرص عبارة مشابهة حين يقول[٥]:

ويوم الربابِ قتلنا همامها وحجراً قتلناه وعمرا كذلكا

ولعمرو بن كلثوم التغلبي قصيدة[٦] يتوعد فيها، كما جاء في التقديم لها، عمرو بن أبي حجر الغساني؛ وربما اعتمد ابن قتيبة على هذا الشعر في تحديد هوية عمرو وحجر في شعر حسان بن ثابت، كما مر آنفا.

يضاف إلى ذلك، في تعزيز احتمال أن يكون حجر بن أم قطام ملكا غسانيا، أن اسم "قطام"، وهو نادر الورود في الأنساب العربية، يظهر في موطنين في الشعر الجاهلي بصلة غسانية، كما

(١) النابغة، ق٢٢: ٢٣.

(٢) حسان بن ثابت الأنصاري، (٥٤هـ/٦٧٤م)، **الديوان**، تحقيق سيد حنفي حسنين، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣، ق٧٣: ٨- ٩.

(٣) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ/٨٨٩م)، **المعارف**، تحقيق ثروة عكاشة، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩، ص٦٤٣ (قارن البكري، معجم، "أيلة").

(٤) لسان، "حجر".

(٥) Lyall ق١٧: ١٢.

(٦) عمرو بن كلثوم التغلبي (بعد ٦٠٠م)، **الديوان**، تحقيق إميل يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩١، ق ٩: ١- ٣.

يبدو. فالحارث بن حلزة يسترعي، في معلقته[١]، انتباه ملك الحيرة إلى أن قومه من بكر بن وائل تصدوا لهجوم على أراضي اللخميين شنه "ابن أم قطام":

ثم حجرا أعني ابن أم قطامٍ   وله فارسيةٌ خضراء

وقد أنشد الحارث معلقته في أواخر القرن السادس للميلاد[٢]، حين كان آل آكل المرار حلفاء للفرس واللخميين. أما الموطن الثاني فهو قول النابغة الذبياني في مطلع واحدة من أشهر قصائده في عمرو بن الحارث الغساني[٣]:

أتاركةٌ تَدلّلها قطام   وضنًّا بالتحية والسلام

طبعا، ليس من سبيل إلى التأكد من أن النابغة يلمح إلى ممدوحه هنا، لكن توظيف مقدمة القصيدة توظيفا رمزيا أمر عليه شواهد جلية في الشعر الجاهلي؛ وبالنسبة إلى هذا الموطن، بصفة خاصة،

يخبرنا أبو الفدا[٤] أن أبا كرب النعمان بن الحارث الغساني كان يلقب بـ "قطام". ولا شك في أن النعمان، هنا لدى أبي الفدا، تصحيف عن عمرو، لأن "أبا كرب" كنية لهذا الأخير[٥]، في حين كان أخوه النعمان يكنى "أبا حجر".

هناك، إذن، دلائل على أن حجر بن أم قطام أمير غساني من آل جفنة. وإذا صح خبر أن "قطام" لقب لعمرو بن الحارث الغساني، أو لأخيه النعمان، كما نفهم من أبي الفدا، ففيه ما يحمل على الظن أن حجر بن أم قطام أخ لكل من النعمان وعمرو، اللذين حكما على التوالي في العقد الأول من القرن السابع للميلاد. وإذا كان الأمر كذلك حقا، فهو يكشف عن عنصر مشترك جديد بين حجر بن الحارث الكندي وحجر بن أم قطام، وهو أن والد كل منهما اسمه الحارث بن عمرو.

لكن على الرغم من كل البريق الذي يسطع من الدلائل السابقة على نسب حجر بن أم قطام في آل جفنة، فهناك ما يرجح بأنه بريق خادع، وبأن حجرا هذا شخصية كندية حقا. فالذي حمل على استبعاد أن يكون حجر بن أم قطام من آل آكل المرار هو أن هؤلاء دخلوا في التبعية الفارسية منذ الربع الأخير من القرن السادس للميلاد، وانهم ظلوا كذلك حتى ساد الإسلام في الجزيرة العربية[٦].

---

(١) الحارث بن حلزة (بعد ٦٠٠م)، **الديوان**، تحقيق إميل يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩١، ق ١: ٦٠.

(٢) انظر عرسان الراميني، "عمرو بن هند في الشعر الجاهلي،" **أبحاث اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات** ٢:١٧ (١٩٩٩): ١٢٩-١٧٣.

(٣) النابغة، ق ٢٤: ١.

(٤) أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود (٧٣٢هـ/١٣٣١م)، **المختصر في أخبار البشر**، تحقيق محمد عزب وحسين مؤنس، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٨، ج١ ص٩٦.

(٥) أدناه، هامش ١٣٨.

(٦) انظر:
Ramini, Irsan. *The Tribe of Tamim and the Origins of the Early Crisis in the Caliphate*, Ph.D. thesis, Cambridge University, 1989 (= Ramini, Tribe), pp. 8- 13.

ولهذا كان من غير المحتمل أن ينخرطوا في ثارات مع بني أسد، شركائهم في التبعية للفرس عبر ملك الحيرة. على أن هناك ما يحتم إعادة النظر في هذا التصور. فمعلقة الحارث بن حلزة تتضمن دليلا مباشرا على تردي العلاقة بين اللخميين وكندة في الفترة التي أنشدت فيها، في أواخر القرن السادس للميلاد. فهي تقدم للملك اللخمي حينذاك دفاعا عن بني بكر بن وائل ضد اتهامات يوجهها إلى هؤلاء حلفاء الملك من بني تغلب، ومنها اتهامهم بالمسؤولية عن غزوة مظفرة شنتها كندة ضد التغلبيين[١]:

أعلينا جناح كندةَ أن يغـنم ... َ غازيهم ومنا الجزاء

وهذه الإشارة في معلقة الحارث تتضافر مع إشارتين في قصيدتين مختلفتين في ديوان عبيد بن الأبرص، تدلان على تردي علاقات بني أسد مع كندة، وعلى نشوب حروب بينهما. وفي كلتا القصيدتين يسهب عبيد في تصوير انتصار قومه على جيش حجر بن أم قطام. ففي الإشارة الأولى يقول[٢]:

لما رأيتَ جموع كندةَ أحجمت ... عنا وكنْدةُ غير جِد كرامِ

وفي الإشارة الثانية يقول[٣]:

هلاّ سألتَ جموع كنْـدةَ ... يـوم ولوا أين أينـا

ويرد الربط المباشر بين حجر بن أم قطام وكندة في قصيدة منسوبة إلى شاعر أسدي آخر هو عمرو بن شأس[٤]، وذلك حيث يقول:

وحجراً قتلْنا عـنوةً فكـأنـمـا ... هوى من حفافي صعبة المتنـزل

فما أفلحتْ في الغزو كندةُ بعدها ... ولا أدركوا مثقـالَ حبة خـردل

من غير المتصور، بالطبع، أن يكون آل آكل المرار قد قادوا حملات عسكرية ضد أهداف لخمية عشية ظهور الإسلام؛ فتحالفهم الوثيق مع الفرس آنذاك يلغي تماما، كما ذكرنا قبل قليل، أي احتمال بأنهم مسؤولون عن الغارات على بني تغلب وبني أسد كما وردت في معلقة الحارث بن حلزة وشعر كل من عبيد بن الأبرص وعمرو بن شأس. صحيح أن الجماعات المتحالفة مع قوة سياسية قد تختلف فيما بينها، وأن خلافاتها قد تتطور إلى حروب، لكن هذا يقع في المنطقة الواحدة حيث تتصادم المصالح أحيانا، وهو لا يصدق على ما نحن فيه هنا. فقد كان آل آكل المرار ينزلون آنذاك في جنوبي الجزيرة العربية، في حين كانت قبائل أسد وتغلب تنزل في شماليها. وهكذا، إذا

(١) الحارث بن حلزة، ق ١: ٧٤.

(٢) Lyall ق ٤: ١٨.

(٣) Lyall ق ٧: ٦.

(٤) ص ٣٤- ٣٥.

كان لكندة صلة بحملات عسكرية ضد اللخميين وحلفائهم عشية الإسلام، فينبغي التنقيب عن أطراف أخرى من كندة تختلف عن آل أكل المرار، أولا، في الموقـف الـسياسي، وثانيـا، فـي الموقـع الجغرافي.

ويستدعي هذا التنقيب تتبع حركة كندة في الجزيرة العربية بعد أن فقدت سـيطرتها علـى قبائل معد لصالح اللخميين في وقت مبكر من القرن السادس للميلاد. فمن المصادر الإغريقيـة[1] يتضح أن آل آكل المرار تنازعوا فيما بينهم على السلطة بعد مقتـل الحـارث بـن عمـرو، وأن الإمبراطور البيزنطي آنذاك، جستنيان، تدخل لدى السميفع، الملك الحميري، لتنصيب قـيس (بـن سلمة بن الحارث بن عمرو) ملكا على معد، بعد أن عقد مع هذا الأخير اتفاقية تحالف. لكن سفارة جستنيان لم تفلح بسبب العلاقة المتردية بين السميفع وقيس بن سلمة، ولذلك، حصل هذا الأخير من الإمبراطور على تفويض بإدارة منطقة في فلسطين الثالثة، فانتقل إليها قيس ومعه جماعة من قبيلته. وهذا يعني أن قسما من كندة استقر في جنوبي فلسطين آنذاك.

ومن جانب آخر، نفهم من دراسات قامت على نقـشي (Glasser ٦١٨) و(Ry ٥٠٦)[2] أن من بقي من كندة مع قادتها الآخرين من آل آكل المرار، وعلى رأسهم يزيد بن كبشة، دخلوا في طاعة أبرهة الحبشي، الذي أسند إليهم، من جانبه، حكم القبائل الموالية له فـي غربـي الجزيـرة العربية، وأن منازلهم آنذاك كانت في الحجاز-- على الأرجح في منطقة "غمر ذي كندة" المحاذيـة لنجد. وبعد انهيار حكم الأحباش في اليمن، كما يستدل من عدد من الأدلة في المصادر العربيـة، توصل آل الجون من كندة إلى تسوية مع الفرس بحيث منحهم هؤلاء تفويضا بالحكم في البحـرين، فانتقلوا إليها مع أتباعهم؛ وظلوا فيها إلى أن هزمهم بنو عامر وحلفاؤهم في يوم جبلـة، فغادروهـا إلى حضرموت في آخر القرن السادس للميلاد[3]. ومن الطبيعي أن نعتقد أن جماعات مـن كنـدة كانت تتخلف عن الانتقال مع رؤسائها، فتبقى في المناطق التي استقرت فيها.

والدليل على أن جماعات من كندة بقيت في المنازل الأصلية للقبيلة بين الحجاز ونجد يمكن أن يلتمس في خبر زواج النبي من بنت النعمان بن أبي الجون الكندي. فقد جاء في هذا الخبـر أن النعمان هذا "كان ينزل وبني أبيه نجدا مما يلي الشربة"[4]. ويمكن أن يلتمس أيضا في معلوماتنـا

(١) انظر ٨ -١٥٣ .Shahid pp

(2) Kister, M. J., "The Campaign of Huluban: a new light on the expedition of Abraha," *Le Museon (Revue D'etudes Orientals Tijdschrift Voor Orientalisme)*, 78 (1965): 425-436, pp.
عرسان الراميني، "حلقة مفقودة في تاريخ مملكة كندة،" **المنارة** ٤: ١ (١٩٩٩): ٥٣- ٦.٧٧ -434

(٣) انظر:
Olinder, G., "Al al-Gawn of the Family of Akil al-Murar," *Le Monde Oriental* 25 (1931), pp. 208- 9

(٤) ابن سعد ج٨ ص١٤٣.

عن أكيدر، صاحب دومة الجندل في عهد النبي. فأكيدر رجل من كندة، لكن من فرع "أشرس بن كندة"، في حين ينتمي آل آكل المرار إلى فرع "معاوية بن كندة". ويظهر أكيدر في المصادر العربية[١] ملقبا بـ "ملك". ومن المستبعد أن يتملك على أهل دومة الجندل دون أن يكون فيها عدد غير قليل من قومه.

هذه المعلومات عن انتشار كندة في الجزيرة العربية في القرن السادس للميلاد لا تدل فقط على استيطان جماعات منها في مناطق نفوذ بيزنطية تقليدية، في فلسطين ودومة الجندل، بل أيضا على تمتعها بقوة سياسية مفوضة إليها من الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية. وانقطاع أخبارها في المصادر البيزنطية والسريانية بعد تلك الحادثة ليس دليلا، بأية حال، على كساد في نشاطها، ولا على أن فرسانها لم يقاتلوا إلى جانب الجيش البيزنطي كما كان يفعل الغساسنة؛ إذ من الطبيعي أن تتوارى أخبار أنشطتهم خلف الإشارات المقتصرة في العادة على ممثل القبائل العربية الأول لدى البلاط البيزنطي، وهو الملك الغساني، في هذه الحالة.

لكن، في المقابل، تبدو علاقة أكيدر دومة الجندل ببيزنطة والغساسنة أكثر وضوحا، وذلك بفضل المصادر العربية. فالمسعودي[٢] يصف غزوة المسلمين لدومة الجندل في السنة الخامسة للهجرة بأنها "أول غزوات النبي للروم"، لأن "أكيدر بن عبد الملك الكندي يدين بالنصرانية، وهو في طاعة هرقل ملك الروم"[٣]. وينص المسعودي في الموطن نفسه على أن النبي أمر بتلك الغزوة لأن أكيدر كان يعترض تجار أهل المدينة ومبعوثي النبي إلى القبائل. ومع أن أكيدر صالح النبي على الجزية أثناء غزوة تبوك وتسلم منه كتاب أمان، فقد نقض الصلح بعد ذلك بتحريض من البيزنطيين، كما تشير الأدلة. فهؤلاء قتلوا عاملهم على عمان/ معان فروة بن عمرو الجذامي بعد أن رفض طلبهم بالتراجع عن ولائه للمسلمين[٤]. ويخبرنا الطبري[٥] أن أكيدر، حين سمع بمسير المسلمين إليه في حرب الردة، بعث يستنجد بحلفائه من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم،

---

(١) مثلا: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠هـ/٩٢٢م)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق دي غوي وآخرين، ١٨٧٩- ١٩٠١، بريل، ليدن، ج١ ص١٧٠٢.

(٥) المسعودي، أبو حسن علي بن حسين (٣٤٦هـ/٩٥٧م)، **التنبيه والإشراف**، ليدن: بريل، ١٩٦٧، ص٢٧٢.

(٣) انظر:

Trimingham, John S.**,** *Christianity among the Arabs in pre-Islamic times*, London: Longman, 1979 (Trimingham), p. 277.

(٤) ابن سعد ج١ ص٢٨١؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، **الكامل في التاريخ**، بيروت: دار صادر، ١٩٨٢، ج٢ ص٢٩٦- ٧.

(٥) ج١ ص٢٠٦٥.

فأتاه ابن الحدرجان في الضجاعم، "وابن الأيهم في غسان وتنوخ"، أو ابن الأيهم "على غسان وتنوخ" كما يقول أبو الفداء[1]. وهذه القبائل كانت تقع في فلك النفوذ البيزنطي.

والخبر الذي يسوقه الطبري هنا ينطوي على قيمة كبيرة، من حيث إنه يمثل، بالنسبة إلى المصادر العربية، أول ظهور للضجاعم على مسرح الأحداث منذ القرن الخامس للميلاد حين أزاحهم أبناء عمومتهم الغساسنة عن السيادة على القبائل العربية في بلاد الشام. وهو، بهذه القيمة، قد يساعد في فهم معلومة مهمة وردت في المصادر البيزنطية، تتعلق بالسنوات الأخيرة من القرن السادس للميلاد، ويظهر فيها قائد عربي باسم "حجر". فثيوفليس (Theophilus) يذكر في تاريخه أن البيزنطيين جردوا في سنة ٥٨٦م حملة عسكرية ناجحة في الأراضي الفارسية شاركت فيها قوتان عربيتان يقودهما حجر (Ogyrus) وضجعم (Zogomus). ويثير عرفان شهيد[2] احتمال أن يكون حجر هذا ملكا من كندة، وأن يكون البيزنطيون قد تحولوا إلى الاعتماد على عناصر عربية أخرى ذات تاريخ عريق في الحكم، مثل كندة والضجاعم، بعد أن ساءت علاقتهم بالغساسنة في مطلع الثمانينيات من القرن السادس للميلاد. وهو يستحضر إلى الذاكرة استعانة البيزنطيين بالغساسنة سابقا، وبالتحديد، حين عقدوا اتفاقية مع الحارث بن عمرو الكندي في مطلع القرن السادس، فوضوا إليه بموجبها حكم جزء من فلسطين، ثم حين نصبوا حفيده قيس بن سلمة حاكما في فلسطين في مطلع الثلاثينيات من ذلك القرن.

ويمكن القول إن هذا الاحتمال الذي أثاره عرفان شهيد أصبح له الآن أساس أقوى. فإشارة الحارث بن حلزة إلى غزوة شنتها كندة ضد أهداف لخمية في العراق في أواخر القرن السادس، والإشارات المتكررة في شعر شعراء بني أسد إلى مواجهات بين قومهم، الموالين للحيرة والمعادين للغساسنة، من جانب، وكندة، من الجانب الآخر، تدل على أن رؤساء كندة عادوا فعلا إلى مكان الصدارة في تنفيذ السياسات البيزنطية في الجزيرة العربية. وقد جاء ظهورهم في أحداث دومة الجندل ليؤكد هذا التطور، وربما أيضا ليكشف عن قاعدتهم الرئيسية ومقر عملياتهم في بادية الشام؛ في الواقع، هناك خبر يسوقه أبو البقاء[3] يدل على أن كندة دومة الجندل كانت تربطها باللخميين علاقة عداء منذ زمن جد أكيدر، عبد الجن بن أعنى بن الحارث بن معاوية، أي منذ النصف الثاني من القرن السادس للميلاد.

---

(١) أبو الفداء، إسماعيل بن عمر الدمشقي (٧٤٤هـ/١٣٤٣م)، **البداية والنهاية**، ط ٣، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، مجلد ٣، جزء٥ ص٣٥٤.

(2) Shahid, pp. 550- 1

(٣) أبو البقاء، هبة الله محمد بن نما الحلي (النصف الأول من القرن ٦هـ)، **المناقب المزيدية في أخبار الملوك الأسدية**، تحقيق صالح درادكة ومحمد خريسات. عمان: مكتبة الرسالة الحديثة، ١٩٨٤، ج١ ص٢٨٣.

ويصب في تعزيز الاعتقاد بأن "حجرا" في نص ثيوفيليس ينتمي إلى كندة أن فيلارخ الغساسنة آنذاك كان يدعى "جفنة"، كما نفهم من تاريخ ميخائيل السرياني. ومن الجدير بالملاحظة في هذا السياق أنه جاء في كتاب "Strategikon"، الذي يعتقد أن مؤلفه هو الإمبراطور موريس، الذي حكم في العقدين الأخيرين من القرن السادس- - جاء النص التالي: "ينبغي تشكيل القوة العسكرية الحليفة [في الجيش البيزنطي] من أقوام متنوعين، وذلك للحد من احتمال أن يتوحد رجالها في سبيل غايات شريرة"[١]. ففي حين تومئ هذه العبارة إلى تغير جذري في تفكير البيزنطيين العسكري في أعقاب ثورة المنذر بن الحارث بن جبلة وابنه النعمان، فإنها تنضاف إلى الأدلة على صعود نجم كندة في سوريا في أواخر القرن السادس للميلاد، وبالتالي، على الهوية الكندية لـ "حجر" ثيوفيليس.

إذا كان "حجر" ثيوفيليس رئيسا من كندة، فالأرجح أن مقره كان في دومة الجندل، وهو ما يتوافق مع، وفي الوقت نفسه يفسر، بعض الجوانب في قصة مقتل حجر بن الحارث الكندي، وبخاصة موقف قبيلة طيئ. فقد قدمت هذه القبيلة الحماية والدعم لامرئ القيس في مساعيه للأخذ بثأر أبيه، وظهر في هذا السياق أسماء أربعة سادة طائيين، أبرزهم المعلى بن تيم بن ثعلبة، المذكور في شعر منسوب إلى امرئ القيس. وطيء تكتسب أهمية خاصة، هنا، أولا، لأنها أقرب قبائل نجد إلى دومة الجندل، وثانيا، لأن بني جديلة، قوم المعلى، كانوا حلفاء للغساسنة وبيزنطة، وتربطهم بدومة الجندل علاقات وثيقة[٢].

فإذا كان "حجر" ثيوفيليس ملكا من كندة، وكذلك كان "حجر" عبيد بن الأبرص، فمن المحتمل جدا أن يكونا شخصا واحدا، نظرا لعامل الزمن، فضلا عن عامل الموقف السياسي. فحادثة مقتل حجر بن أم قطام وقعت في نهاية القرن السادس للميلاد، كما يستنتج من شعر بني أسد. فعبيد بن الأبرص يفتخر بانتصار قومه على بني دارم في يوم الجفار، وبانتصارهم قبل ذلك على بني عامر في يوم النسار، فيقول[٣]:

ولقد شببنا بالجفارِ لدارمٍ	نارا بها طير الأشائم ينعب
ولقد تقادم بالنسارِ لعامرٍ	يوم لهم منا هناك عصبصب

ويفتخر بشر بن أبي خازم، من جانبه، بانتصار بني أسد في الجفار، وبقتلهم حجرا في حادثة وقعت قبل الجفار، كما نفهم من شعره[٤]:

(١) عن Shahid

(٢) الراميني، ارتباط، ص ٣٠٠- ٣٠٣.

(٣) Lyall ق ٢: ١٨-١٩.

(٤) بشر بن أبي خازم، ق ٣٨: ١٤-١٧.

فَقَضضن جمعهم وَأَفْلَتَ حـاجِب — تَحتَ العجاجة في الغُبارِ الأَقْتَـمِ
ورَأَوا عقابهم المدلةَ أَصبـحـتْ — نُبِذَتْ بِأَفْضح ذي مخَالِب جهضمِ
أَقْصدن حجراً قبلَ ذاك والقَـنـا — شَرع إِليه وقد أَكَب على الـفَـمِ
ينوي محاولةَ القيام وقد مضـتْ — فيه مخارص كل لَدنٍ لَـهـذَمِ

أما أنه يتحدث هنا عن يوم الجفار فهو واضح من قوله في قصيدة أخرى[1]:

وهم وردوا الجفار على تميمٍ — بكل سميدعٍ بطلٍ نـجيب
وأفلت حاجب تحتَ الـعوالي — على مثْل المولعة الطَلوب

ويوما النسار والجفار، وهما حدثان مترابطان، وقعا بعد وقت قصير من يوم جبلة، الـذي يعود تاريخه، حسب نتائج مناقشة استقصائية متأنية[2]، إلى أوائل تسعينيات القرن السادس للمـيلاد. ومن الواضح من الصيغ المستخدمة أن الشاعرين يتحدثان عن النسار والجفار ومقتل حجر بوصفها وقائع متقاربة في الزمن؛ وهذا، من جانبه، يعني أن حادثة مقتل حجر تقع زمنيا في دائرة تسعينيات القرن السادس، أي بعد سنوات قليلة من ظهور "حجر" ثيوفيليس في الوثائق البيزنطيـة فـي سـنة ٥٨٦م.

وهذه المحاولة للربط بين حجر بن أم قطام وحجر "ثيوفليس" قد تجد لها سندا آخر في معلقة الحارث بن حلزة. فأنشطة عمرو بن هند (اللخمي)، الذي يخاطبه الحارث في معلقتـه، ارتبطـت بأحداث وقعت في نهاية القرن السادس للميلاد[3]. ومن المتعذر معرفة ما إذا كان حجر بن أم قطام حيا حين أنشد الحارث معلقته، لكن من المستبعد أن تكون إغارته على أراضي اللخميين قد وقعـت بعد اتفاقية ٥٩١م بين خسرو أبرويز وموريس، وهي الاتفاقية التي وضـعت حـدا للحـرب بـين الإمبراطوريتين طوال عقد التسعينيات. أي إن الحارث بن حلزة حين يمن على عمرو بـن هنـد بتصدي قومه لابن أم قطام إنما يشير إلى حدث وقع في الفترة التي كان فيها حجر ثيوفيليس يشارك في عمليات حربية ضد أهداف فارسية، وفي مقدمتها أهداف لخمية في العـراق. وهكـذا، هنـاك أساس قوي لترجيح الهوية الكندية لحجر بن أم قطام، في مقابل الهوية الغسانية. لكن مهما كان من أمر هوية حجر هذا، فلا علاقة له بالشاعر امرئ القيس-- لا في النسب ولا في الزمن.

(١) السابق، ق ٤: ١٧-١٨.

(2) Ramini, Tribe, p. 39.

(٣) انظر الراميني، عمرو بن هند.

كلمة أخيرة

لعل الظروف الحقيقية المحيطة بموت عبيد بن الأبرص قد اتضحت الآن. فالاتجاه السائد في المصادر بمختلف اهتماماتها يفيد بأن ملكا لخميا أمر بقتله ثم بعد ذلك تختلف الروايات في تحديد هوية هذا الملك، هل هو المنذر بن ماء السماء أم ابنه عمرو أم حفيده النعمان. ولما كان الدارسون المعاصرون من مستشرقين وعرب متحفظين إزاء الرواية الخاصة بطول عمره، ولما كانوا غير متشككين في معاصرته لحجر بن الحارث الكندي وابنه امرئ القيس، فقد آثروا اعتماد الخيار القائل بأن المنذر بن ماء السماء هو الذي قتله. ومع أن دراسة غير منشورة[1] انتبهت إلى رواية نادرة تسند الأمر بقتل عبيد إلى ملك غساني يدعى "أبا كرب"، ووظفت حالة العداء بين بني أسد والغساسنة في ترجيح هذه الرواية، فإنها أضاعت فرصة تحديد زمن عبيد بسبب استحواذ الاعتقاد بمعاصرته لامرئ القيس وأبيه؛ إذ توصلت، عبر مناقشة متسرعة، فيها اضطراب في فهم محتوى بعض نقوش الجزيرة العربية كما يعرضها جواد علي، وفيها قبول غير متحرز لروايات الأخباريين، إلى أن أبا كرب هذا هو المنذر بن حارث بن جبلة، الذي تولى حكم الغساسنة في سنة ٥٦٩م.

إن "أبا كرب" كنية واردة في شعر عبيد بن الأبرص، لكن اسم صاحبها هو "عمرو"، وليس المنذر. فعبيد يخاطب "أبا كرب" في معرض حديثه عن الدنيا التي لا تدوم لإنسان، كما يشير ويذكّره بأن الموت سيدركه يوما وبأنه سيترك وراءه حينئذ ما كان فيه من نعيم الملك، مهما حاول أن يحمي ملكه ويثبته في الأرض بحبال وأوتاد[2]:

أبلغْ أبا كربٍ عني وأسرته ... قولا سيذهب غَورا بعد إنجاد
يا عمرو ما راح من قومٍ ولا ابتَكَروا ... إلا وللموت في آثارهم حادي
فإن رأيتَ بواد حيةً ذكرا ... فامضِ ودعني أمارس حيةَ الوادي
لأعرِفَنّك بعد الموت تندبني ... وفي حياتي ما زودتني زادي
إن أمامك يوماً أنت مدركه ... لا حاضر مفلتٌ منه ولا بادي
فانظر إلى فيء ملك أنت تاركه ... هل تُرسين أواخيه بأوتاد

وليست هناك معلومات عن مناسبة هذه القصيدة، لكن هذه الأبيات تظهر مثقلة بأنات شاعر يائس متعب، أنهكه طول المسير؛ وهي، إلى جانب ذلك، تصر على قارئها أن يستشعر روح الهزيمة تسكن الشاعر وهو يترك إلى الزمن أمر التكفل بالانتصار على عدوه، معلنا انسحابه من

(١) درابسة.
(٢) Lyall ق ٢٥: ٤-٩.

ساحة القتال. ولذلك، تنطوي هذه الأبيات على ما يبعث في النفس شعورا قويا بأن عبيدا كان، حين قالها، يرسف في قيود أبي كرب إذا صحت رواية قتله على يديه؛ وليس لدينا أي سبب للشك في صحتها.

ومن غير المتعذر، على أية حال، استشفاف الظرف الذي قتل فيه عبيد بن الأبرص، في ضوء اتضاح حقائق مهمة في حياته وشعره. فعبيد أدرك يوم جبلة وأدرك أحداثا كبيرة وقعت بعد ذلك اليوم؛ وهذا، من جانبه، يدل على أنه كان حيا عند الدخول في القرن السابع للميلاد، أي عشية تنصيب عمرو بن الحارث ملكا على الغساسنة. الآن، هناك قصيدة أخرى للنابغة في عمرو بن الحارث[1] شبيهة في موضوعها بقصيدة عبيد، يسهب فيها الشاعر بالحديث عن حملة عسكرية كبيرة لهذا الملك ضد بني أسد، مصورا ما ألحقته بهؤلاء من قتل وأسر وسبي وتشريد، ومحذرا قومه، ذبيان، من أن يحل بهم ما حل ببني أسد إن هم تمادوا في تحدي الغساسنة:

فإذا وقيت بحمد ا شرتَها   فانْجى فزار إلى الأطواد فاللوب

ولا تُلاقى كما لاقت بنو أسد   فقد أصابتهم منها بشُؤبوب

لم يبقَ غير طريد غيرِ منْفلت   وموثَق في حبال القد مسلوب

أو حرةٌ كمهاة الرمل قد كُبِلت   فوقَ المعاصمِ منها والعراقيب

تدعو قُعيناً وقد عض الحديد بها   عض الثقاف على صم الأنابيب

مستشعرين قد ألفَوا في ديارهم   دعاء سوعٍ ودعمي وأيوب

ومن الواضح أن النابغة في هذه القصيدة يردد ما يقوله عبيد في قصيدته التي يسترحم بها من يدعوه "أبيت اللعن"، وذلك حيث يقول:

حلاً أبيتَ اللعن حلاً   إن فيما قلتَ آمه

في كلّ واد بين يثـ   ـرب فالقصورِ إلى اليمامة

تطريب عانٍ أو صيا   ح محرق أو صوتُ هامة

إن بعض ما يلفت النظر في حملة التقتيل والتحريق والتشريد والسبي هذه ضد بني أسد أنها شاهد على حدوث اختلال جذري في ميزان القوى في نجد، وذلك حين نقرأها إزاء العنفوان الذي يظهر في شعر عبيد وسائر شعراء بني أسد وهم يتغنون بانتصاراتهم على الغساسنة وعلى القبائل المتحالفة معهم. وهذا التضعضع في موقف بني أسد يمكن تفسيره في ضوء سقوط مملكة الحيرة في مطلع القرن السابع. فمع إقصاء النعمان بن المنذر عن الحكم، زالت الحماية التي كانت توفرها الحيرة لبني أسد، وبالتالي وجدوا أنفسهم مكشوفين أمام جبروت الغساسنة واضطروا إلى الإذعان

(١) النابغة، ق٤: ١١- ١٦.

لهم، كما نفهم من شعر لعامر بن الطفيل[1]. ولم يكن تحالفهم مع غطفان ليغني عنهم كثيرا، لأن أي تحالف قبلي كان يحتاج لمرجعية سياسية تمنعه من التفكك وتثبت سلطة زعمائـه. فـي الواقـع، يتحدث النابغة عن محاولات لقطع هذا الحلف في زمن عيينة بن حصن بن حذيفة الفزاري؛ أي في عهد الغساسنة المتأخرين؛ ومن عبيد نفسه[2] قد نفهم أن هذه المحاولات ربما حققت نجاحا.

لقد آذن سقوط حكم اللخميين بانقلاب في حظوظ بني أسد وسائر حلفاء الحيرة في نجـد، وحمـل، بالنتيجة، نذر الشر لعبيد بن الأبرص ولغيره من سادة قومه وشعرائهم، الذين سطروا بفروسـيتهم وشعرهم تاريخا حافلا بالبطولات والانتصارات. ويقول جرونباوم (Grunbaum)، بعـد تأمـل عميق في النبضات التي تسري في شعر عبيد، إنه "لا بد أن يكون قد مات قبل أن تتقدم به الـسن؛ ربما قبل الخمسين من عمره"[3]. قد يكون هذا الرقم غير مقنع للكثيرين، لكنه مسوغ تماما؛ حتـى إن نزارة شعر عبيد وقصر فترته الزمنية، على الرغم من أن الشاعر يعد من بين "الفحول"، ربمـا تنبئ بأن عمره قلّ كثيرا عن الخمسين.

(١) عامر بن الطفيل (نحو ١٠هـ/٦٣١م)، **الديوان**، تحقيق هدى جنهويتشي، ١٩٩٧، مؤسسة الرسالة- دار البشير، بيروت-عمان، ق٩: يذكر عامر بن الطفيل أن بني فزارة "يعطون خرجهم"؛ وبالنظر إلى زمن عامر بن الطفيل فإن الجهة الوحيدة المرشحة لأخذ إتاوتهم هم الغساسنة، وبالنظر إلى الحلف بين ذبيان وأسد، فإن ما يذكره عامر يصدق على الطرفين.

(٢) Lyall ق ٢: ٢٨.

(٣) عن *EI.*, v.s. Abid b. al-Abras